وزارة الدفاع والاستعلامات
مكتب ترجمة
رقم ٧٦٨

مناحم بيجين

التوراة والبندقية

تأليف فيكتور ملكا

الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة
رقم ٧٢٨

إهداء إلى
مكتبة الإسكندرية
من

لواء إ ح
محمد ضياء الدين زهدي

مناحم بيجين

التوراة والبندقية

تأليف : فيكتور مالكا

فهرس

صفحة

مناحم بيجين « التوراة والبندقية ٥
الفصل الأول : من هو مناحم بيجين ٧
« غروب دولة حزب العمل ١١
من أجل بضع دقائق ١٣
مجتمع فى ازمة ٢١
الفضائح ٣٤
صراع على القسمة بين رابين وبيريز ٤٢
عملية عنتيبى ٤٤
عندما كان أطفالنا يبكون على القنصلية كان العالم يلزم الصمت ... ٤٥
البديل المستحيل ٤٧
الصهيونية وتياراتها ٤٩
على أعتاب الحكم ٥٩
الثورة بالانتخابات ٦٣
طفولة زعيم ٦٥
فترة عصيبة ٧٤
تعلم السلطة ٨٢
اسرائيل الجديدة ٨٩
من بن جوريون الى بيجين ٩١
العودة الى اليهودية ١١٣
المجتمع العلمانى ١١٥
البجينية ١٢٢
من يخلف بيجين ١٢٣
الأمل ١٢٨
لقد خلق الرجلان ليلتقيا ١٣١

مناحـــــم بيجـــــين
التوراة والبندقيـــــــة

بقلم : فيكتور مالكا

ان النفور من شيء يساعد على تحليله
بصورة افضل بيد أن التعاطف معه
هو وحده الذى يساعد على فهمه .

(اندريه سينجريد)

لا يمكن انجـاز عمل كبير بدون رجال كبار ، وقد أصـبح هؤلاء كذلك لانهم ارادوه لانفسهم .

(شارل ديجول)

تولدت فكرة هذا الكتاب من ذكرى واستياء . ولنبدأ بالذكرى : لقد انفعل المؤلف انفعالا عارما عندما كان طفلا يعيش فى مملكة الفقر والضوء المتمثلة فى الجيتو الغربى ، لدى قرائته لكتاب « ثوره اسرائيـل » لمناحم بيجين حيث وجد أن تاريخ شعبه يعد أيضا تاريخ المقاومة والشـجاعة . ومنذ ذلك الحين ظل المؤلف يكن لبيجين التقدير والاعجاب ، وان لم يوافقه على آرائه السياسية .

أما عن الاستياء فقد جاء نتيجة الاقوال المخالفة للصواب التى تسرعت الصحف ونشرتها عن مناحم بيجين غداة الانتخابات الاسرائيلية التى اجريت فى مايو سنة ١٩٧٧ بينما كان الرجل يتأهب لتولى زمام أمـور اسرائيـل ومستقبلها .

وقد أراد المؤلف تحليل تلك الافكار المسـبقة ومكافحتها فى بعض الاحيـان .

ها هو اذن ملف بيجين . ولا يتمثل الهدف هنا فى كتابة قصة حياة الرجل ولكنه فى رسم صورة لشخصية رجل كان على موعد مع التاريخ .

فما هو لغز هذا الرجل ؟ ومن اين يستمد سر قوته ؟ وهل سيقود شعبه نحو الحرب الاسرائيلية ـ العربية الخامسة التى يعلم الجميع انها ستسفر عن نتائج وخيمة ، أم سيكون الرجل الذى اختاره التاريخ ليوقع على اول معاهدة سلام تبرم بين اسرائيل وجاراتها ؟ .

ومن ذا الذى يستطيع أن يتوقع شيئا اليوم بينما المسرح السياسى فى الشرق الاوسط يثبط همة جميع التحاليل ويبدو خصيبا بالمتناقضات ويمكن ان يخبىء الشىء ونقيضه على السواء ؟

ولا يدعى مؤلف هذا الكتاب انه سيرد على جميع الاسئلة التى تطرح اليوم على دولة اسرائيل فى مواجهة العالم العربى . ومع ذلك فانه قد يسهم فى التعريف بدرجة اكبر برجل من أكثر الرجال جاذبية على المسرح السياسى الاسرائيلى ربما سيترك بصماته على التاريخ فى الغد ..

« فيكتور مالكا »

الفصل الأول

من هو مناحم بيجين

« يشبه التاريخ معرضا للوحات قليل
منها اصلى ومعظمها تقليد »

(اليكسى دى توكفيل)

(من كتاب : « نظام الحكم القديم والثورة »)

السابع عشر من مايو ١٩٧٧ . اقتربت الساعة من الحادية عشرة مساء وخلت شوارع اسرائيل من المارة . ان الاسرائيليين قابعون فى ديارهم ، منتبهين امام أجهزة التليفزيون لمعرفة النتائج الأولى للانتخابات .. واخذ هنوك سمث ، المتخصص فى شئون الانتخابات ، يقلب أوراقه بعصبية وهو يعلن بلهجة المهاجرين الأمريكيين : « تدهور واضح لحزب العمل الذى فقد ثمانية عشر مقعدا ، حصل الليكود على اربعة وأربعين مقعدا وداشن على خمسة عشرة مقعدا . ومن المؤكد ان مناحم بيجين سيشكل الحكومة الجديدة » .

انها العاصفة : أهم انقلاب سياسى عرفته اسرائيل انقلاب من القاع ـ ثورة انتخابية فجائية ؟ غير متوقعة . أذهلت الجميع حتى صانعيها انفسهم .

اهتز عالم . وانتهت بصورة مؤلمة خمسون عاما من هيمنة العماليين ، كانت قد انتهت بالمزج بين الدولة والحزب فى علاقة تشبه الملكية ..

وفى الساعة الواحدة والنصف صباحا ، ظهر شيمون بريز الذى لم يحالفه الحظ بالفوز بمنصب رئيس الوزراء فى مقر الحزب وهو منهك القوى وصاح قائلا : أصبنا بنكسة خطيرة . ولكنها ارادة الأمة .

وانطفأت الأنوار فى مقر حزب العمل الذى يقع فى المبنى رقم ١١٠ شارع هيركون فى تل أبيب بعد أن تجاهله الصحفيون . وانتقلت الفرحة الى الجانب الآخر من المدينة والى الطرف الآخر من التاريخ ..

ضج شارع كنج جورج بالهتافات . تدفقت الجماهير بلا انقطاع على « قلعة زيف » مقر الليكود وهى تهتف : « بيجين بيجين » وبدا بيجين وقد

فقد بعضا من وزنه (فقد كان يتماثل للشفاء بعد أزمة قلبية كادت أن تؤدى بحياته وتحرمه من نصره) مرتديا سترته ورباط عنقه على البـاب وهو يبتسم تلك الابتسامة التى لن يفقدها أبدا .

فبعد تسعة وعشرون عاما من المعارضة ، ذاق أخيرا نصرا طال رفضه كما طال انتظاره . ورفع ذراعه مشهرا علامة الانتصـار وهى حركة محببة الى قلبه ــ وقال وسط الهتافات والتصفيق « يمثل هذا اليوم تحولا فى تاريخ الشعب اليهودى والحركة الصهيونية » .

وعلى أجهزة التلكس فى السفارات وصالات التحرير توالت البرقيـات الهامة .. وحملت هذه البرقيات اسم رئيس الوزراء الاسرائيلى الجـديد وطرحت التساؤلات فى العالم كله من أقصاه الى أقصاه .. وبدأ اخـراج الملفات القديمة من الأرشيف وسؤال الخبراء : من هو مناحم بيجين ؟ وفى واشنطن ، التى يمكن اعتبارها اقرب الضواحى السياسية للقدس ، كانوا يعرفونه بالكاد .. فلم يلتق الرئيس جيمى كارتر ببيجين من قبل (رغم أن هذا الأخير طلب الاجتماع معه ، لدى مروره بالعاصمة الأمريكية فى بداية عام ١٩٧٧) كذلك وزيره سيروس فانس . وحتى هنرى كيسنجر ، الذى قابل كثيرا من الشخصيات فى اسرائيل اثناء جولاته المستمرة ، لم يكن لديه الوقت للاجتماع بزعيم المعارضة ، ومما لا شك فيه انه كان يعتبر حـزب الليكود كان مهمـلا ..

ان الرحالة الدبلوماسى الأمريكى لم يتبادل مع بيجين سـوى عبارات قصيرة خلال حفل استقبال لم يترك لكسينجر ذكرى طيبة .

كسينجر : انك الرجل الذى يريدنى ان اذهب الى الجحيم ؟

بيجين : انك مخطىء يا سـيدى الوزير . انى اتمنى ان تذهب الى الجنة ولكنى آمل أن تستحق ذلك .

ولم تكن باريس أكثر حظا . بل أن صحفى الاذاعة كانوا يتلعثمون وهم ينطقون باسم بيجين « واعلنت احدى اذاعات الأقاليم لمستمعيها أن السيد « محمد بيجين » فاز فى الانتخابات .. » ، ولم يكن متبقيا لها سوى أن تضيف كلمة « الحمد لله » . ولا يشكل أصدقاء الليكود السياسيون فى فرنسا عددا غفيرا ، وأن كان بيجين قد احتفظ ببعض العـلاقات الوطيدة منذ الأيام البطولية لجماعة أرجون والمقاومة اليهودية .

To: www.al-mostafa.com

وكان جاك سوستيل وحده هو الذى ارسل برقية تهنئة غداة الانتخابات التشريعية الى الرجل الذى كتب له مقدمة كتابه « ثورة اسرائيل » وهذا شيء قليل اذا قيس بالدولية الاشتراكية » ذات الاعتبار التى كان أعضاء حزب العمل يتفاخرون بالانتماء اليها .. ومقابل ذلك ، لم تتأخر ردود الفعل العربية . وكانت التعليقات بعيدة عن الرقة تماما ، مثلما كان متوقعا. فقد وصف راديو دمشق مناحم بيجين بأنه « عنصرى وارهابى » وصرح محمود رياض أمين عام الجامعة العربية قائلا : لقد أدخل الارهاب فى المنطقة « وأضاف كريم خلاف عمدة رام الله : « أن الحرب الاسرائيلية العربية الخامسة فى طريقها الى الاندلاع » .

ومن العريب أن انور السادات الذى كنا ننتظر تعليقه ، قد تحدث بلهجة أقل حدة .. ان الرئيس المصرى لا يرى أى اختلاف بين رابين وبيجين فهما من وجهة نظره سواء . فهل كان السبب فى ذلك هو حرصه على الاحتفاظ ببعض فرص انعقاد مؤتمر جنيف الذى تتمناه مصر كثيرا منلها فى ذلك مثل الولايات المتحدة ؟ لقد قدم معلق اسرائيلى تفسيرا اكثر تنوعا اذ كتب يقول صرح الرئيس السادات عام ١٩٧٣ بأنه قرر شن حرب الغفران لكى يجعل حزب العمل يدفع ثمن موافقته على المبادىء التوسعية . ويكرر التاريخ نفسه بصفة دائمة . ولكن الثمن سيرتفع . مع « بيجين » .

من هو مناحم بيجين ؟ سرعان ما سنعرفه . فقبل أن يتولى مهام منصبه كشف رئيس الوزراء عن طابعه الخاص غداة الانتخابات .. اذ كانت أول زيارة يقوم بها ، زيارة لمستعمرة « قدوم » فى الضفة الغربية لنهر الاردن حيث بارك انصار « اسرائيل الكبرى » أعضاء منظمة « جوش ايمونيم » (كتلة الايمان) واجاب بيجين باستهزاء على صحفى كان يسأله عما اذا كان سيضم الضفة الغربية لنهر الاردن ، قائلا : « لا يمكن أن نتحدث عن ضم أرض تعد جزءا لايتجزأ من اسرائيل » وتمتمت سيدة من جماعة جوش ايمونيم قائلة : « ها هو قد جاء عهد المسيح وقالت الصحافة الامريكية التى وصفت بيجين « بالحماس الشديد » : لقد جاء « عهد الصقور » .. ونشرت مجلة نيويورك على غلافها عنوانا يقول : « يوم الصقور » ... أما صحيفة التايمز فقد تحدثت عن انتصار الصقور المتطرفة .. وهكذا حددت هاتان الصحيفتان ، اللتان لم تتهما ابدا بمعاداة اسرائيل الاتجاه العام .

ومن الذى لا يخشى مناحم بيجين ؟ ذلك الارهابى ، زعيم منظمة ارجون وشبح المقاومة المعادية لبريطانية ، ومؤيد القضية اليهودية والمناضل من اجل اقامة « اسرائيل الكبرى » ؟ سرعان ما تكونت الأسطورة وتبلورت السمعة . ونطق بالحكم . ولن يكون من السهل معارضة التيار . وتعين على بيجين أن يوفد اثنين من أفضل مستشاريه هما صمويل كاتز ، الى الولايات المتحدة ، وايلى بن العازر ، الى باريس ، فى مهمة تستهدف طمأنة العاصمتين واعادة الأوضاع الى حالتها الطبيعية ..

ان الحزب الذى تولى السلطة فى اسرائيل ظل فى صفوف المعارضة طوال ربع قرن دون ان ييأس ويرجع انتصاره الى صناديق الاقتراع وحدها .

كما يرجع الى التفتت البطىء الذى اصاب مجتمع حزب العمل الذى تآكل من الداخل نتيجة تفشى الفضائح والخدع . ويدين ليكود بهذا الانتصار — وهذا مؤكد بالأرقام — للقوى الحية فى الامة ، وللشباب الذى تحول عن طبقة سياسية زال نفوذها ، وللعمال الذين صدمهم انتشار الاختلاسات والرشاوى واستغلال المناصب واخيرا الى السفارديم (اليهود الشرقيين) الذين ملوا الوقوف بلا نتيجة على أبواب السلطة ..

ان الرجل الذى تولى السلطة فى اسرائيل ليس بذلك الشبح الذى تصوره الرسوم الكاريكاتورية العربية ، ولا هو « روبسبير » (رجل الثورة الفرنسية) كما تصوره قصص واساطير حزب المابای . فلا شك فى أنه رجل يمينى ومن المؤكد كذلك انه وطنى وربما كان متصوفا بيد انه رجل ظل طوال حياته يحترم قوانين الديمقراطية .. وظلت الجملة التالية تلازمه طوال حياته السياسية وهى : « ان الحرية تحكم ايديولوجيتى من البداية الى النهاية » ..

بيجين فى بولندا مسقط رأسه . بيجين مسئول عن البيتار (الحركة القومية للشباب) بيجين قائد منظمة ارجون (حركة المقاومة ضد الانتداب البريطانى فى فلسطين) بيجين رئيسا للمعارضة . بيجين منتصرا يوم السابع عشر من مايو . لم يتغير بيجين فى جميع مراحل حياته اذ صرح قائلا « اننى مناضل من أجل الحرية ، رجل يحاول خدمة شعبه » .

ومن النادر ، بالفعل ، أن نجد حياة سياسية ، بنفس صدق حياة مناحم بيجين .. واذا ما تتبعنا الخطب التى ألقاها ، لاكتشفنا احدى مفاتيح شخصيته فى تلك اللازمة التى تتكرر دائما فى تصريحاته : اذ نجد نفس الادارة الجبارة الرامية الى رفع النهضة اليهودية فوق الأحداث وفوق الزمن وفوق الرجال .

غروب دولة حزب العمل

« أن انحدار مجتمع ما يبدأ من اللحظة
التي يتساءل فيها الرجال عما سيحدث ،
بدلا من التساؤل عما يمكنهم القيام به » .

« دينى دى روجومونت »

من اجل بضع دقائق :

ان انتصار بيجين يمثل فى المقام الاول هزيمة حزب العمل . ولقد عجل هذا الحزب نفسه بهزيمته ..

ففى العاشر من ديسمبر سنة ١٩٧٦ اخذ اسحاق رابين رئيس الوزراء واغلبية وزراء حكومته وموردخاى جور رئيس اركان حرب جيش الدفاع الاسرائيلى ونخبة من كبار الضباط يقطعون بعصبية بالغة ساحة قاعدة جوية ريفية تقع فى مكان ما من الدولة على حد التعبير الذى تستخدمه الرقابة العسكرية الصارمة واخذ اتباع رئيس الوزراء يتفحصون السماء بخليط من الفخر ونفاذ الصبر الممزوج بالقلق .

وسأل اسحاق رابين : « هل سيصلون فى الوقت المحدد ؟ » . واجاب موردخاى جور الذى لا يفصح وجهه العسكرى الصارم عن اى تعبير قائلا : « من المقرر ان يصلوا فى الثالثة والدقيقة الخامسة والعشرين » .

وفجاة وتحت الافق شقت ثلاث طائرات من طراز ف ١٥ السحب الكثيفة التى تكاثرت فوق المطار ووقفت الواحدة تلو الاخرى فى طرف ممر الهبوط صفا واحدا فى نظام تام . وانبثق من صدور الحاضرين ترحيب شديد تحية لهذا الوصول الذى كان رحلة روتينية عادية بالنسبة للطيارين .

بيد ان هذه الطائرات الثلاث من طراز ف ١٥ والتى حصلت عليها اسرائيل بعد مئات الساعات من المشاورات المضنية مع الولايات المتحدة تعلن عن اسطول حقيقى سيدعم طائرات الميراج التى اصبحت قديمة والفانتوم والكفير التى يتكون منها الطيران الاسرائيلى الاسطورى الذى بخشاه الجميع وتعد هذه الطائرة مفخرة التقنيات ومعجزة الاليكترونيات .

وقد تحدث ، لفترة انقلابا فى توازن الرعب للأسلحة فى الشرق الاوسط وهو انقلاب سيكون فى هذه المرة لصالح اسرائيل : ويبلغ العدد الاجمالى لهذه الطائرات خمسا وعشرين طائرة اولا هن آخر .

وصرح اسحاق رابين امام ملايين المدعوين وهو يستقبل الطيارين الثلاثة قائلا : « ان اليوم مشهود فقد حصل جيش الدفاع الاسرائيلى ، وخاصة

قواته الجوية على طائرة ذات كيفية غير عادية ، لقد تسلم طيارونا افضل طائرة فى الشرق الأوسط » .

أما موردخاى جور فقد قال : « لقد أصبحت دولة اسرائيل وجيش دفاعها بعد حصولهما على طائرات ف ١٥ دولة اخرى وجيشا آخر » .

وفى هذه اللحظة المحددة ، لم يكن فى مقدور أحد من المدعوين أن يلتقط كلّ ما لآراء رئيس اركان الجيش من صفة النبوءة الحقة .

كان هذا اليوم هو يوم الجمعة ، وانتهت الحفلة المتواضعة واتجهت قوافل السيارات ببطء الى مقر مجلس الوزراء . واستعد الجميع لقضاء يوم « سبت لطيف » وقد شعروا بالسعادة لان الولايات المتحدة دعمت مرة أخرى قوة اسرائيل العسكرية . وتجاوزت الساعة الرابعة بعد الظهر بقليل . وكانت عطلة السبت فى القدس قد بدأت فى الساعة الثالثة وتسعة وخمسين دقيقة بعد الظهر ، وفى تل أبيب تبدأ فى الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة . وبحل السبت ، طبقا للتقاليد اليهودية مثلّ ظهور النجوم بساعة تقريبا . وتلتزم المؤسسات القومية طبقا لاتفاق حكومى ، باحترام قدسية يوم الراحة الأسبوعية وتمنع من « انتهاك حرمة يوم السبت علنا » .

ولم يكن سبب القلق الذى كان يستولى على القادة منذ دقائقّ يرجع الى وصول الطائرات الثلاث بقدر ما كان يرتبط بطول الليلّ المفاجىء . فهلّ سينتهك رئيس الوزراء وأعضاء وزارته قدسية عطلة يوم السبت علنا ؟ اذ قد تترتب على مثل هذا الانتهاك آثار ونتائج لا يمكن حسابها ، فىّ دولة يحتاج حزب العمل فى اطار الائتلاف الحاكم الى المساندة البرلمانية والأحزاب الدينية لكى يضمن أغلبية المقاعد ويحتفظ بالسلطة ، نظرا لأن توزيع التنازلات والحلول الوسط التى تحكم العلاقات بين العماليين وأعضاء الاحزاب الدينية يعد هشا للغاية .. وكان كالمان كاهان ، النائب المتواضع ، لحزب « بادلى أجودات اسرائيلّ » والذى ينتمى الى فريق المتعصبين دينيا ، سيدخلّ التاريخ رغما عنه فبعد هذه القضية ستنتهى دولة الماباى لتحلّ محلها دولة الليكود . وقبل انعقاد الحفلة لاستقبال الطائرات كان هذا النائب قد اتصلّ بوزير الأديان طالبا منه اتخاذ كلّ الاحتياطات اللازمة والتأكد من رئيس الوزراء شخصيا من أن الاحتفالّ سينتهى قبلّ بداية عطلة السبت . وبعد انتهاء الحفلة ظلّ اسحاقّ رابين يدافع عن حسن نواياه ونوايا أجهزته واضطر الى اذاعة بيان يعرب فيه عن « أسفه الشديد فىّ حالة ما لو كانت عطلة السبت قد انتهكت » .

ولم تقنع ثورة النائب المتشـــدد الغيـــور على التقاليد الدينيـــة هـــذه الاعتذارات العلنية :

ففى الرابع عشر من ديسمبر قدم كالمان كاهان اقتراحا للبرلمان بسحب الثقة من الحكومة : وانتصرت الحكومة فى الاقتراع بخمسة وخمسين صوتا ضد ثمانية واربعين صوتا . ولكن يا للمفاجأة ! لقد امتنع البرلمانيون الاعضاء فى حزب « الفـدال » (وهو الحزب القومى الوطنى العضو فى الائتـــلاف الحاكم) عن التصويت باستثناء بوست بورج وزير الداخليـــة الذى صوت لصالح اسحاق رابين . وقال وزير الداخلية فيما بعد : « عنـــدما رايت توفيق طوبى النائب العربى الشيوعى وشولاميت الونى الشهيرة بمناهضتها الدين يدافعان عن قدسية عطلة السبت ، بدات أحدد نصيب الدين ونصيب السياسة فى هذه القضية . انها لقضية سياسية بحتة » .

واخذ الطابع السياسى لهذه القضية فى التزايد يوما بعد يوم . فى التاسع عشر من ديسمبر وخلال اجتماع مجلس الوزراء أخبر اسحاق رابين وزارته الاعضاء فى الاحزاب الدينية باستغنائه عنهم : لان امتناعهم عن التصويت يتنافى تماما مع التضامن الحكومى . وفى مساء اليوم نفسه قـــدم رابين استقالتـــه . واســـتقالت وزارته الى افرايم كاتزير رئيس الدولة واتفقت الأحزاب التى تمت مشاوراتها على تحديد يوم السابع عشر من مايو موعدا لاجراء الانتخابات التشريعية القادمة .

ورأى الجميع فى هذا الاجراء « مناورة ماهرة » من جانب رابين .. فهو يقطع الطريق ، فى ظل هذه الظروف ، على الجهود التى يبذلها خصمه فى الحزب الا وهو شيمون بيريز وزير الدفاع الذى ينازعه السلطة علنا حتى أن حربا حقيقية بين الاخوة قد دارت بين صفوف حزب العمل وامتدت الى الحكومة وظهرت انباءها فى جميع الصحف . ومن جهة أخرى اوقف رابين باجرائه هذا انطلاقة حركة داشن (الحركة الديمقراطية من اجل التغيير) التى انشئت حديثا برئاسة الجنرال ــ عالم الآثار ايجـــال يادين والتى تضم مجموعة من التكنوقراطين الشـــبان اللامعـــين ، واســـاتذة الجاسوسية وكبار الضباط ومديرى المؤسسات وكل العناصر التى تمثل مفخرة الهيكل التكنوقراطى الاسرائيلى . كما يتجنب رابين بذلك ايضـــا ، نشر سلسلة من الاجراءات الاقتصادية ، التى قد تغضب الشعب ، والتى اضطر وزير ماليته الى اتخاذها لمواجهة التضخم السريع ولتلبية المطالب المتزايدة للعاملين فى القطاع العام والذين ضاعفوا من اضراباتهم الوحشـــية

والقاسية (مثل الاضراب الذى أعلنته الممرضات) أن تعيين رابينو فيتش المالية يمثل فشلا يتعذر بصورة مطردة كتمانه أو اخفاؤه وأخيرا فاجأت استقالة رابين غير المتوقعة حزب الليكود الذى كان يعيد تنظيم صفوفه تحت اشراف عيزرا وايزمان رئيس أركان حرب السلاح الجوى السابق ، الذى دأب منذ تقاعده على الاضطلاع بدور جمع شمل اليمين الليبرالى والوطنى .

وما لبث تكتيك رابين أن توقف دون أن يحقق اية نتيجة لقد استقال رئيس الوزراء السابق لكى يسحب البساط من تحت أقدام جميع خصومه — فى المعارضة وداخل حزبه على حد سواء — ولكنه سيكون الموظف الأخير فى تصفية السيطرة القديمة للعمال على الحكم « ان ما لم ينجح زلزال حرب الغفران فى أكتوبر سنة ٧٣ » فى تحقيقه ، أحدثته عيوب حكومة رابين — ببريز الى جانب سأم ونفاذ صبر الطبقات الاجتماعية العديدة (صغار البرجوازيين من التجار والصناع والشرقيين والشباب المسرح من الجيش والمهاجرين الجدد من الاتحاد السوفيتى .. الخ) :

لقد اندحر حزب وجهاز توليا امور الدولة كلها لفترة طويلة لدرجة انهما ارتبطا بها ارتباطا وثيقا وانهما هما الدولة ولذلك سيكون السقوط بالغ الصعوبة . وكانت الهزات الأولى المتمثلة فى المشاكل قد أثارت قلق كثير من ساسة حزب العمل مثل أسحاق بن احارون ، سكرتير عام نقابة الهستادروت السابقة والذى اتخذ منذ استقالته موقف المعارض الغاضب والعنيد رغم هدوئه ، وكذلك دوفا بن مائير سكرتير عام حزب العمل السابق (افؤدا) الذى كتب دراسة اجتماعية ذات دلالة هى « ازمة فى المجتمع الاسرائيلى » نشرت عشية حرب سنة ١٩٧٣ ، أيضا ارينى لوفا اليافه مؤلف كتاب أحدث ضجة وهو « دولة الابل » (أحد أسماء اسرائيل فى التوراة) يتناول فيه هذا الرجل السياسى بالتحليل مشكلات اسرائيل المعاصرة ودخولها فى لعبة القوى الكبرى وفى مجال الشرق الأوسط ناقدا الادارة وجبن ساداتها فى البحث عن السلام . ويعد اليافه اليوم أحد محركى نشاط اللجنة السياسية المشتركة الاسرائيلية الفلسطينية التى تحاول اجراء حوار صعب مع الفلسطينيين وأعضاء منظمة التحرير الفلسطينية وكانت انتخابات سنة ١٩٧٣ التى مهدت لهزيمة سنة ٧٧ ، قد جعلت رجال حزب العمل يشعرون بالخطر وهم الذين كانوا ينعمون ، حتى ذلك الحين ، بالطمأنينة التامة .

مهدال ، مهدال ، مهدال .. منذ الأيام الأولى التى تلت هجوم المصريين المفاجىء فى السادس من أكتوبر عندما كانت اسرائيل تحتفل بيوم الغفران

وبينما فاجأت الحرب الدولة الغارقة فى صلواتها وتأملاتها ظهرت هذه الكلمة وسرعان ما انتشرت فى جميع وسائل الاعلام ، وعلى أفواه كل الجنود الشبان وأرباب الأسر الذين أرسلوا الى الجبهة والذين فاجأتهم الحـــرب وهم فى سراديبهم وخنادقهم فى حالة من عدم الاستعداد بل ومن الاهمال والغفلة تكاد تقـــارب عدم ادراك حقيقة الأمر من جانب المسئولين العســـكريين والسياسيين .. وأغرقت القوائم الأولى للخسائر فى الأرواح والصور الاولى للأسرى الاسرائيليين الذين وقفـوا فى ذلة أمام آلات التصـــوير المصرية والسورية ، اسرائيـل ، فى حالة من التخبط واختلاط الأمور ليس من المؤكد أنها قد شفيت منها حتى اليوم .

ان كلمة مهدال تعنى اهمال . ان الاهمال قائم على جميع المستويات فى نظام اسرائيل . ولنبدأ بالمجال العسكرى .. ان المصير الذى لقيه خط بارليف الشهير لم يكن أفضل من مصـــير خط ماجينو الذى كان الجميع يشيرون اليه فى عام ١٩٣٩ مرددين شعار « لن يمروا » .. ويحمل خط بارليف اسم رئيس أركان حرب الجيش الذى صـــممه .. وكان جميـع الاسرائيليين يقولون دائما انه : « لا يمكن الاســـتيلاء عليه » . وقد تكلف بناء هذا الخط ملايين الجنيهات واقيم خلال حرب الاستنزاف ، فى الأعوام التى تلت حرب الأيام الستة . ولم يكن خط بارليف سوى سلسلة من مراكز المراقبة الحصينة والقلاع المدفونة حتى منتصفها تحت الأرض والتى تبعد الواحدة عن الأخرى بعشرات من الكيلو مترات . وقد اندفعت قوات الفريق الجمسى قائد القوات المصرية الى هـــذه الفجوات الحقيقية .. واستولت بسهولة على هذه الحصون كلها الواحدة تلو الأخرى باستثناء واحد فقط هو حصن « بودابست » .. والواقع أنه فى يوم الغفران وعلى الرغم من تحذيرات أجهزة المخابرات (التى أسىء تفسيرها) خلت معظم هذه الحصون من الاعداد والكميات العادية من الرجال والمعدات .

وتضاف الى هذه الحالة من التسيب واللامبالاة ، سلسلة من الأخطاء التكتيكية التى ارتكبها بعض كبار الضباط منذ الساعات الأولى لنشوب الحرب . والأسوأ من ذلك أن المعلومات التى أذاعها المتحدث الرسمى باسم الجيش والتى نشرتها وسائل الاعلام الاسرائيلية قد حرفت حقيقـة الموقف المؤسف .. ومما لا شك فيه أن أزمة الثقة التى هزت الدولة بعد ذلك قد تولدت فى هذه الآونة عنـــدما سمع الجنود المرابطون على الجبهـة ببانات حكومتهم المتفائلة التى تكذبها وقائع المعركة الشرسة التى يواجهونها .

وقال أكثر من مقـاتل اسرائيلى « لقد اصبحنـا نكذب مثل العرب » . وأضاف آخرون « لقد تعلم العرب ان يحاربوا مثلنا وتعلمنا نحن كيف نكذب مثلهم » وانتشر هذا التعبير وذاع فى حصون الجولان وفى خنادق سيناء .

وسيظل الخبراء يحاولون لفترة طويلة قادمة لكى يحـددوا ما اذا كانت حرب الغفران قد أسفرت عن انتصار عسكرى أم عن هزيمة سياسية لاسرائيل ، ولكن لا شك فى أن الادارة السياسية القديمة هى التى منيت بالهزيمة فى الحرب .. وعلى « الديناصورات » ـ كما يطلق عليهم البعض بطريقة (تفتقر الى الاحترام) ـ ان يتركوا مقاعد الوزارة ويتخلوا عن السلطة التى يمسكون بزمامها منذ نشأة الدولة وعن المهام المريحة التى تغذى بسخاء السياسيين القابعين لهم .. وأخذ هـذا الهمس الذى خرج من ارض المعركة يتزايد حتى بات صرخة غضب : « لا يمكن أن يدوم الحال على ما هو عليه » . وقد كررت مجموعة من جنود الاحتياطى الذين تم تسريحهم هذه الجملة اثر عودة «موتى الاشيكمينازى (أحد الجنود الذين نجوا من نقطة مراقبة بودابست ، حيث نزل أفراد هذه المجموعة الى الشارع وقد امتزجت آراؤهم يمينية كانت أم يسـارية وتجمعوا كلهم سواء كانوا من الحمائم أو الصقور ، ونادى الجميع « بالتغيير » .

وانتشرت حمى المناقشات والمشروعات وثار غليان سياسى لم يسبق له مثيل واستولى على قدامى الضباط وعلى الجامعيين والكوادر الشـابة التى تريد أن يستخلص الجبل السـياسى القديم ، الذى يأفل نجمه ، دروس حرب أكتوبر ..

وعلا بصورة مطردة صوت الذين أصبحوا لا يترددون فى المطالبة باقالة الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الذى حمله الرأى العـام مسئولية « اهمال » الحرب بينما برأه تقرير لجنة اجرانات « التى شكلت لمحاكمة المسـئولين عن الحـرب . ولم يستطع أريل شـارون ، الافريقى ، بطل الثغرة فى الضفة الأخرى لقناة السويس ، والذى يعـد المنتصر الحقيقى الكبير فى هذه الحرب وبطل شعب بأكمله ، أن يخفى صراحته واحتقـاره تجاه زملائه الضباط الذين اخفقوا فى الحرب . وصراحة القول كان ثمة شىء ما قد تغير داخل اسرائيل : فلم يعد هناك اشخاص مقدسون لا يمكن أن يتناولهم أحد بالنقد ولم يفلت أحد من النقد ولا حتى جيش الدفاع الاسرائيلى المزود بأحدث الأسلحة المطورة .

وفجأة استولى الخوف على حزب العمل : فقد تحدد يوم ٣١ ديسمبر موعدا لاجراء الانتخابات واستعد هذا الحزب طوعا أو كرها لاخلاء المكان لكتلة الليكود التى كانت فى أوج صعودها بفضل شعبية اريل شارون الذى كان اسمه يتصدر احدى القوائم الانتخابية لتلك الكتلة وفى مقر قيادة (المعراخ ، تحالف أحزاب العمل والمابام ، الأكثر يسارية والماركسى) لم يعد أحد يتوهم كثيرا : اذ أن الشعب مستعد للتحول والتغيير . ومن المؤكد أن حركة « التمرد والرغبة فى التغيير » الجماعية ستنعكس على صناديق الاقتراع .

٣١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ : سيعلن التليفزيون بعد لحظات النتائج الأولى للانتخابات التشريعية التى اتفق جميع النقاد على انها قد تكرس فشل وعجز المجموعة التى تتولى السلطة . وأخذت جولدا مائير تدخن السيجارة تلو الأخرى ، وتطلق زفرات تنبعث من أعماق صدرها « لقد بدأت فى تلقى النتائج الأولى للمجالس البلدية (المقترنة بالانتخابات التشريعية) لقد انتزعت عمودية تل ابيب من أيدى » بيهوشوا رابينوفيتش أحد القادة القدامى للمابای لكى تستقر فى أيدى شلومولاهات ، مرشح ليكود ، والجنرال الاحتياطى .

وبعد انقضاء بضعة ساعات أمكن للجدة الشجاعة أن تتنفس الصعداء : فقد انتصرت مرة أخرى على عدوها اللدود مناحم بيجين اذ حصل الليكود على ٣٥ مقعدا مقابل ٥١ مقعدا حصل عليها تآلف المعراخ .. وعلى الرغم من استيائهم ، شعر الناخبون الاسرائيليون المحافظون بالخوف من المضى فى المغامرة وخوض المجهول . ومرة أخرى وبعد حصولها على ثقة الكنيست شغلت جولدا مائير الوزارة الجديدة برجال حزبها وحزب الائتلاف وبقى ديان وزيرا للدفاع وكوفىء رابينوفيتيش بعد فشله فى انتخابات المجالس البلدية لتل ابيب ، وعين وزيرا للاسكان . وحصل اسحاق رابين لدى عودته من واشنطن على اول منصب وزارى له حيث اصبح وزيرا للعمل .

ومع ذلك فقد حدث تحول معين ومحسوس من جانب هيئة الناخبين نفد فقد المعراخ ستة مقاعد من تلك التى كان فاز بها فى انتخابات عام ١٩٦٩ بينما نجح الليكود فى الحصول على ١٣ مقعدا جديدا ، وهكذا بدأ

فى عام ١٩٧٣ ما حدث فيما بعد فى عام ١٩٧٧ . فقـد لقن حزب العمل درسا قاسيا من هيئة الناخبين التى وقفت عند حافة التغيير السياسى الشامل .

وعلى مدى اربعة أعوام تولت الحكومة التى خلفت حكومة جولدا مائير (التى استمرت فى الحكم ثلاثة أشهر فقط) والتى رأسها اسحاق رابين مهمة التبديد السريع لكمية الثقة التى بقيت لدى الشعب .. ذلك الشعب الذى هزته أزمة عميقة زلزلت أسس مجتمعه التى لم تمس حتى الآن بما فى ذلك معتقداته ورؤيته للعالم .

مجتمع فى أزمة

انتقل المجتمع الاسرائيلى فجأة فى عام ١٩٧٣ من جو الكآبة الذى ساده اعتبارا من عام ١٩٧٠ الى العنف شبه العصبى والى نوع من الاستسلام المرضى للهلع الذى يعد صفة مميزة لليهود والذى اختلط بتقلب الأطوار الذى يعد سمة شرقية بحتة .. « ان هواء القدس ينقى الروح » هكذا يقول حكماء التلمود .. اذ أن مناخ اسرائيل العام يؤثر على التفكير ايضا ، ويشحذ الاحاسيس كالخمر ؛ وانتقل شعب بأكمله فى ليلة واحـــدة من نشوة الانتصار الى التشبع بالندم ويعكس ذلك الأمر أيضا الروح الجماعية لاسرائيل التى اعتادت تداول المستحيلات الجدلية ..

ومحاولة التوفيق بين الأضداد وتنسيق التناقضات الفلسفية بصورة يكاد لا يصدقها العقل حقا ان اسرائيل تمثل هذا المزيج المتفجر من التفاؤل المكابر الذى يتطلع الى الخلاص وهو فى أفران النازية رازحا تحت نير الوان التعذيب والاضطهاد ..

ومن الذى يستطيع الشك فى ان الهواء الطبيعى الذى تتنفسه اسرائيل هو نوع من الهيستريا المذابة فى صرخات لا نهـــاية لها تنتقل من اللوم الدائم الى شك كبير استقر فى أكثر التأكيدات جزما ؟ هذا هو السؤال الذى يلائم اسرائيل بما لا يقل عن ملائمة الأجوبة التى تحاول تقديمهـــا بشأن بقائها .

ومن الأفضل لكى نفهم اسرائيل من الداخل ، أن نحللها فى حركتهـــا وليس فى سكونها ، فى المناقشات التى تجرى داخل السيارات وليس فى المقالات الافتتاحية التى تنشرها التايمز البريطانية . ويا لها من سخرية هائلة وتشاؤم كامل يحدث اثره أولا على الذات ثم على العالم . ودخل عهد الشك التاريخ منذ ظهور ابراهيم الذى حطم أصنام والده . ولم تعرف اسرائيل عقدة أوديب .

وعلينا ان نتذكر دائما أن التوتر الأقصى بين الأمل والخوف هو الذى يكون النسيج الحسى والروحى لاسرائيل .

فهل أدركنا ذلك ؟ لقد أدركنا بوضوح هذا الجنون بالوطنية الذى يمثل مرض اسرائيل الجماعى والذى يشل فجـــأة كلا عضـــلاتها ويوتر أعصابها ويجعلها تنبش جراحها بقوة لا مثيل لها وتمارس ذكاء أعمى ، لا يظهره سوى منتهى اليـأس ، ويذهب الى حد انكار الذات والى « كره اليهودى لذاته » الذى وصفه الفيلسوف الالمانى ليسنج .. بأنه شعب لا يستطيب « الرضاء النفسى » ــ أو نادرا ما يستطيبه ــ ولا يرضى عن نفسه الا بصعوبة بالغة حيث تلتصق به مشكلة شخصية . ان اسرائيل هى شعب يناضل ضد نفسه قبل أن يناضل ضد الآخرين .

وهناك على أية حال فترة من التـاريخ المعـاصر لاسرائيل الحديثـة أوشك فيها القلق الدائم والتساؤل عن الذات المعـذبة ، على التحول الى شعور « تافه » هو الكبرياء ، بسبب تحقيق الانتصارات العســكرية . كان ذلك فى عام ١٩٦٧ بعد أن هزم جيش الدفاع الاسرائيلى القوات العربية المشتركة وبعد ان فرضت قواته سلطان اسرائيل على الشعوب الذليلة . واخذ كبار الجنرالات ، عباقرة أرض المعركة الذين يفتقرون الى اللباقة فى الحديث امام الصحافة العالمية أخذوا يتحدثون ، وهم يحملون الكؤوس بين ايديهم ويرتدون زيا عسكريا أنيقا ، عن امبراطورية اسرائيل والقدرة الاسرائيلية والحملات الجديدة لكى يصارحوا دمشق والقاهرة والحكام العرب بحقيقة أمرهم ولكى يحققوا فى غمرة الاحداث الديمقراطية والأمن الاجتماعى للجماهير العربية التى ستعترف لاسرائيل بهذا الجميل .. ولم يتبق ثمة اثر للنزعة العسكرية ما دام المدنيون عسكريين . وكل العسكريين يصبحون مدنيين منذ بلوغهم سن الخامسة والأربعين .

وقد تولدت روح من البلادة اثر حرب الأيام الستة متمثلة فى تنـافر الاناشيد العسكرية وظهور الأغانى الهزيلة ، كما يحدث دائما بعد عروض الجيش العسكرية ، واصدار البومات الصور التذكارية التى يتخاطفهـا السياح ، واقامة الحفـلات التى يظهر فيهـا كبار الضباط الذين يثيرون اعجاب سيدات الطبقة البورجوازية القليلة العدد فى تل ابيب . وانتشر هؤلاء الجنود فى كل مكان بعد أن تملقهم شعب بأكمله وراحوا يتحدثون كثيرا وهم الذين كان صمتهم واصدارهم للاوامر المختصرة والفعالة يعد بمثابة الاساطير .

ثم ظهرت المثالب الاولى لهذا الوضع الجديد فقد عاد هذا الجنرال او ذاك من ايطاليا بعد مهمة رسمية وقد شيـد داخل منزله حمامات من

المرمر الايطالى فما هو عذره ؟ انه يعانى من البواسير . وشيد آخر فيلا فاخرة بفضل الايدى العاملة التى التقطها من قاعدته العسكرية وبأدوات سرقها من الترسانات . وذهب به مرض التعاظم الى حد تغطية مقابض الأبواب بالذهب . ولا شك فى أن هذه الظاهرة تعد هامشية ولكنها كانت تكشف عن مدى الاخطار التى تحوم باسرائيل : ان عام ١٩٦٧ يمثل حقا صدعا فى تاريخ هذه الدولة .

فالواقع انه حتى ذلك الوقت كانت الصورة العزيزة على قلب هذا المجتمع الصغير المتطوع ، المتضامن الذى يشبه قرية كبيرة تفوق مساحتها مساحة قطاعين فرنسيين ونصف ، هى صورة مجتمع الأخوة المتقشف ، الرائد ، المتواضع فى طلباته وحيث يتساوى نصيب الحلم مع نصيب الواقع . وكان بن جوريون الذى اعتزل فى أواخر حياته فى صحراء النقب المهجورة فى مستوطنة سدى بوكر المنعزلة التى انشأها الشباب المجنون المولع بالمغامرات والخدمة الاجتماعية ، يمثل اكثر من صورة لقد كان نموذجا مثاليا لا يمكن لأحد أن يفكر فى الاستهزاء به رغم ندرة الدين وجدوا فى انفسهم الجراة الكافية لكى يحذوا حذوه .

وفى خلال عشرة أعوام حلت الروح العملية ــ التى لم تكن فعالة دائما ــ محل الايديولوجية القديمة الاشتراكية المثالية ، كما سادت المادية السافرة مع نزعة اقليمية تبعث على الياس : واستقرت بالفعل الميول الشرقية التى طالما خشيها مؤسسو الدولة . وانتشرت المطاعم الفاخرة المزدحمة دائما ، وانتشرت ازياء بيركاردان وركب الاسرائيليون السيارات الفولفو والمرسيدس وقاموا برحلات للخارج ، محققين بذلك حلم الطبقة البورجوازية الصغيرة المتطلعة الى الرفاهية فى جميع المجتمعات الغربية .

وترتب على ثراء طبقة اجتماعية محددة المعالم هى طبقة مقاولى الأشغال العامة ورجال الصناعة الذين يعملون لحساب وزارة الدفاع الوطنى ومستوردى المواد المستهلكة ، ان القى باسرائيل بين عشية وضحاها فى مجتمع السيولة . وقد أعطى المارك الالمانى المتولد عن أصلاحات الحرب (التى عارضها بجين بشدة) مذاقا مسبقا لهذا التحول الذى استكمله بصورة نهائية تدفق الدولارات التى قدمتها المساعدات الامريكية والدعم الذى تبرع به يهود الشتات غداة يونيو سنة ١٩٦٧ . وأثناء حرب الاستنزاف فى السبعينات وعندما أقام الجنرال بارليف خط الدفاع الذى يحمل اسمه على طول قناة السويس ، كان يكفى ان يمتلك المرء بولدوزرا

لكى يصبح عملاقا فى مجال التشييد والبناء : وفى سنة ١٩٧٠ بلغت قيمة تأجير هذا الجرار ليوم واحـــد لوحدات الجيش المجـــاورة حوالى ثلاثة آلاف ليرة .

وطبقا لهذه الدفعة امكن لهيرمان كاهن Hermann Kahn الأســـتاذ فى معهد هدسون Hudson ان يتوقع ان اسرائيل ستصبح فى ســـنة ٢٠٠٠ سويسرا الشرق الأوسط بحق .. وفى انتظار تحقيق ذلك كانت النفقات العسكرية تستحوذ على ما يقرب من ربع اجمالى الناتج القومى وأثقلت الديون كاهل الدولة التى بلغت مديونيـــة الفرد الواحـــد فيهـــا لمختلف منظمات القروض الدولية رقما قياسيا هو ستمائة دولار تقريبا هـــذا فضلا عن الديون الشخصية . اذ أن الاسرائيلى المتوسط يعيش ، فى غفلة من الحكومة ، بأعلى من مستوى دخله ويضطر فى كثير من الأحيان الى أن يقوم بعمليتين فى آن واحد بل والى العمل سرا أيضا ، ويعيش مثقلا بالديون طوال حياته مما يؤثر على عمله ويسبب له تأنيب الضمير أيضا . هكذا كان حال هذا الاسرائيلى المهاجر الى الولايات المتحدة الذى أفضى يوما لمراسل صحيفة معاريف بقوله : لقد تركت البلاد لأنى لم أعد أطيق الكذب، ولم أكن راغب فى الانفاق أكثر مما اكسب ولا فى أن أعيش خائفـــا من رؤســـائى فى العملين اللذين لا أعتنى بأى منهما من حيث الكيفيـــة حيث يضطرنى الى ذلك ظروف حياتى » .

سوق سوداء للعملات الحرة ، تزوير الاقرارات الضريبية للادخار فى الخارج (وتبلغ قيمة النقود المهربة للخارج بثلاثة مليارات من الدولارات) كأن جميع الاسرائيليين يقومون بهذه العمليات الخاصة متحايلين ، فى سبيل ذلك على القانون بطريقة ما . بيد أن ذلك يثقل كثيرا على مجتمع أراد أن يكون بعيدا ، على الأقل فى بداية عهده عن المظاهر المالية ، وعدوا للزيف ، ونقيا الى حد الزهد ، ومحتقرا للمادية .. حتى اذا كان الجميع ـــ تقريبا ـــ يخدعون السلطات ويغشون ضمائرهم ، فان عقدة الذنب تكون أكثر ثقلا فى حملها : وهكذا كان أحـــد قرارات وزير الماليـــة فى حكومة بيجين هو تبييض الحال الأسود الذى ينساب داخل اسرائيل وخارجهـــا وعلاوة على مزاياه المالية فيما يتعلق بمنطق الاقتصـــاد الحر ، فان لهذا الاجراء تأثيرا نفســـيا : اذ أن الاسرائيليين الذين يعتبرون انفسهم مواطنين غير صالحين بمقياس الالتزام الاجتماعى الصـــارم ، والذين قاموا بتهريب أموالهم ، بمكنهم ، حماية لأموالهم التى امتصها التضخم الرهيب ـــ تقريبا ٤٠٪ ـــ فضلا عن الانخفاض المستمر لقيمة العملة الوطنية ، أن يعيدوا أموالهم

فهذا على الأقل هو ، ما تأمله وزراة المالية) دون ان يتعرضوا لاى لوم عام .. وعلاوة على ذلك ، سيحصلون ، مكافاة لهم على ما يشبه شهادة بوطنيتهم .

والى جانب ثراء هذه الشريحة الاجتماعية ، كان المواطن المتوسط يعانى من الفقر خاصة فى نهاية كل شهر . ويثرى البعض بصورة متزايدة بينما البعض الآخر يعانى من تناقص الموارد اللازمة لمعيشتهم .. ولدى نشأة الدولة كانت الفوارق فى المرتبات لا تتجاوز ١ : ٣ بينما وصلت اليوم الى ١ : ١٢ . وعندما يعلن المهندسون الاضراب يكون ذلك لانهم يعترضون على تباين المرتبات بينهم وبين زملائهم فى قطاعات أخرى . وعندما أوقف موظفوا شركة العال رحلات الطيران كان ذلك لاعتراضهم على المساس بعملاتهم الحرة من الدولارات والاسترلينى التى يعتبرونها جزءا لا يتجزأ من مرتباتهم بينما يشير تقرير حكومى الى أنه ما من طيار تابع لشركة العال قد قام خلال الخمسة أعوام الأخيرة بتبديل اى مبلغ من العملات الحرة فى البنوك الاسرائيلية . بيد ان غلاء المعيشة الدائم والضرائب المفرطة تمس بصفة خاصة الطبقات الأكثر فقرا ..

وهى تمس فى المقام الأول قطاعا من الشعب الاسرائيلى يطلق عليه استحياء اسم « الطبقات غير المحظية » .. وغالبا ما تتكون هذه الطبقات من عائلات كثيرة لا تستطيع ان تعبر حاجز الفقر وتعيش فى ظل ظروف لا تطاق من التكدس .. ويقوم أطفالهم بارتكاب الآثام وممارسة الدعارة واستهلاك المخدرات والاتجار فيها .

وتتحدث بعض الأرقام عن نفسها .. وينطبق ذلك على تقديرات « اسرائيل كاتز » مدير التأمينات الاجتماعية السابق (والذى يشغل اليوم منصب وزير الشئون الاجتماعية) الذى كتب تقريرا ــ يحمل اليوم اسمه ــ يتعلق بالفقر فى اسرائيل وبالشباب الذى يواجه الخطر : واذا كان متوسط الدخل القومى فى عام ١٩٧٥ قد بلغ ٣١٫٤٠٠ ليرة ، فان دخل العائلات التى يرجع أصلها الى الدول العربية بلغ ٢٧٫٤٠٠ (بينما يزيد عدد أفرادها عن عدد أفراد العائلات الأخرى) وتجاوزت العائلات التى يرجع أصلها الى أوروبا وافريقيا هذه النسبة المتوسطة وبلغ دخلها ما بين ٣٣٫٤٠٠ و ٣٩٫٠٠٠ ليرة سنويا . ان اجراءات الاصلاح الاقتصادى التى اتخذها « سيمحا ايرلخ » والاتجاه القائم بصورة متعمدة على التحرير الرأسمالى للاقتصاد ــ وفقا للتوصيات الملحة للأب الأكبر للراسمالية

الجديدة وهو « ميلتون فريدمان » الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد ـ لابد أن يسفرا عن تفاقم الموقف .

ومنذ تولى حزب الليكود السلطة ارتفعت أسعار المنتجات الاستهلاكية الأساسية مرتين بما يتراوح ما بين ٢٠ ، ٢٥٪ مما يثقل كاهل ميزانية العائلات الاكثر فقرا ..

وفى مجال آخر لا شك فى أنه سيحدد وجه المجتمع الاسرائيلى فى المستقبل وهو مجال التعليم ، ترتب على تسعة وعشرين عاما قضاها حزب العمل فى السلطة ، والاضرار ، لفترة طويلة قادمة بغرض تقدم العائلات السفارديم (من أصل شرقى) .

ويمثل أبناء هذا القطاع من السكان (الذى يبلغ عدد أفراده ٦٥٪ من اجمالى تعداد الشعب) ٦٠٪ من تلاميذ مرحلة التعليم الابتدائى و ١٢٪ من التعليم الثانوى (بالمصاريف على الرغم من بعض الاعانات العائلية) و ٨٪ من التعليم الجامعى و ٤٪ من الحاصلين على شهادات من الجامعات الاسرائيلية .

وفضلا عن ذلك فان هؤلاء اليهود ، الذين يرجع أصلهم الى دول اسلامية ، ليسوا ممثلين بصورة كافية فى البرلمان (٢٠ نائبا من ١٢٠) وفى الحكومة (وزيران ونائب وزير) وفى الادارة العليا وفى الجيش (جنرال واحد من أصل يمنى وفى المجال الدبلوماسى) لقد كان نصيبهم التجاهل والاستغلال : فهم الذين يكونون أغلبية الأيدى العاملة الوطنية فى قطاعات العمل وفى الطرق يقومون بتجفيف المستنقعات ، وتشجير الهضاب الجرداء ولكنهم دائما منسيين ساعة اعداد « بيانات الانتصار » التى تصدرها « المؤسسة » بصفة دورية . وفى أوروبا يمكن أن يطلق عليهم اسم « العالم الرابع » . وهنا يسمونهم « اسرائيل الثانية » .

اسرائيل الثانية : انه تعبير يطلق العنان للتفكير فى مجتمع كان يريد لنفسه أن يكون مجتمعا متساويا ولكن نجد فيه طبقا لعنوان قصة أثارت ضجة كبرى أن البعض متساوون والبعض الآخر أكثر تساويا أيضا » .

ويقيم هؤلاء اليهود فى المدن النائية أو التى تقع على الحدود فى مواجهة هجمات الفلسطينيين (مثل كيرات شمونية ، معلوت ، بيت شيان) وفى الاحياء الفقيرة من المدن الكبرى (موسارا وكاتانون فى القدس ووادى صليب فى حيفا وشوخناط هاتيكوا فى تل أبيب) ومعناها مدينة الابل) .. ان

« اسرائيل الثانية » هذه لا تجد نفسها فى القيم التى نودى بها والتى حط العماليون من قدرها .. ويرى أفراد اسرائيل الثانية أن الحديث عن الاشتراكية الذى يفتقر الى لون محدد لا يفيد الا للابقاء على امتيازات نخبة أسست نفسها بنفسها . ولا شك ان اسرائيل الثانية تتعرف على نفسها بدرجة أكبر ، فيما وراء أى تحليل سياسى « منطقى » ، فى صورة اليهودى التقليدى الذى يمثله مناحم بيجين ، « الرجل القوى » الذى « يعرف كيف يتحدث الى العرب » .. وفى الحقيقة لا يهم هؤلاء اليهود الشرقيين كثيرا أن يكون جميع الوزراء من الراسماليين الفعليين سواء أكانوا من كبار أو صغار رجال الصناعة الذين لا يعرفون العقد : ان هؤلاء على الاقل لديهم الجراة الكافية للاعتراف بلونهم الحقيقى ولا يمارسون أعمال المتميزين من وراء الستار الباهت لاشتراكية اقتصرت فائدتها على الابقاء على من يلوكون اسمها حيث هم من السلطة .. « وذات يوم من أيام شهر ابريل ١٩٧١ أطلقت مجموعة من الجانحين الشبان والعاطلين ، الذين يعيشون بلا عمل فى ضواحى الفقر ، على نفسها اسم « الفهود السوداء » وألقت بذلك فى وجه المجتمع الاسرائيلى تحديا اجتاح هذا المجتمع الى وقت طويل حتى تسنى له أن يفيق منه .

ومما لا شك فيه انه لأول مرة منذ اضطرابات وادى صليب فى سنة ١٩٥٩ اكتشفت اسرائيل مدى صعوبة سد «الهوة الاجتماعية والطائفية». ومنذ ذلك الحين فصاعدا يرفض الشباب الشرقى أن يضحى به على مذبح أمن البلاد ، تلك الحجة الأزلية التى تساق لرفض المطالب الزهيدة التى يتقدم بها هذا الشباب .

فماذا يريدون ؟ مساحة أكبر فى شققهم التى يرثى لحالها ــ تعيش ٤٠٠ر٠٠٠ عائلة شرقية فى منازل تضيق بعدد سكانها ــ وتعليما يتلاءم مع تراثهم الثقافى ولا يصطبغ بهذه الصيغة الأوروبية ــ المركزية فى هذه الدولة التى تنتمى الى منطقة الشرق الأوسط ، ونظاما أفضل للتأمينات الاجتماعية والاعانات العائلية .. وفى كثير من الأحيان تختنق هذه الأصوات الشابة تحت وطأة المزايدات السياسية أو بالأحرى عن طريق شراء سكوتهم . بيد أن هذه الاصوات الشابة الثائرة لم توشك بعد على أن تخمد .. لقد انضم بعضهم الى المعارضة الشيوعية مثل النائب الشاب « شارلى بيتون » الذى ذاق مرارة السجون ، بينما انضم الآخرون الى الأحزاب المعتدلة مثل حزب داش أو الى اليسار مثل حزب شيلى . بيد ان الجميع يريدون أن يكون لهم فى النهاية صوت مسموع ، أى أن يشتركوا فى الحكم . وربما يدل

القرار الذى اتخذ مؤخرا بانشاء وزارة الشئون الاجتماعية التى عهد بها الى « اسرائيل كاتز » (الذى يحظى باحترام جميع ممثلى اليهود الشرقيين) على ان الحكومة الاسرائيلية الجديدة اتجهت ، على الرغم من المنطق الاقتصادى الذى يحكمها نحو العمل على تحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية .

ذلك انه حان وقت العمل بسرعة .. وخاصة فيما يتعلق بالشباب .. ان معظم الجانحين وممارسى الدعارة وتجار المخدرات (من جميع الأنواع) ينتمون الى الطبقات الفقيرة بينما يرتكب الجرائم الحقيقية أفراد الطبقات المتميزة والدينية ايضا فى بعض الأحيان . ولا يتأثر احد على الاطلاق من ان ٩٠٪ من نزلاء السجون يتكونون من يهود من أصل شرقى . ولكن عندما يتعاطى بعض أبناء طبقة الشباب الثرى فى اسرائيل الجميلة (الوجه الآخر لها) المخدرات فى مدارس رامات هاشارون وفى الأحياء الأنيقة من تل ابيب أو القدس يسارع الجميع بالاشارة الى ان هذه المخالفة تمثل أحد ظواهر المجتمع الحديث وتفيد دراسة اجراها البروفسير بارك المستشار القضائى للحكومة بأن حوالى مائة الف شخص يتعاطون المخدرات بصورة منتظمة الى حد ما .. ومن بين هؤلاء الأشخاص كثير من الشبان ، مثلما يحدث فى العالم كله .. ومع ذلك ينظر الى هذا الأمر فى اسرائيل على اعتبار انه كارثة حقيقية ، اذ ان مستقبل الدولة ووجودها يرتكزان اساسا على الشباب الذى قام الحلم الاسرائيلى من اجله واستنادا اليه .. ان هذا الشباب الممثل فى الصابرا يعد فخرا لأهله الذين يقومون بحمايته وتدليله وجعله مسيطرا لا يواجه العقبات . انهم يريدون طرد أشباح المنفى والعائلة اليهودية التقليدية التى تعانى من الاختناق والجائرة الى حد ما ..

وماذا لو كف هذا الشباب فجأة عن الايمان بالملحمة الصهيونية ؟

سينهار المشروع اذن . لقد اتهموا هذا الشباب بجميع العيوب : بالمادية والأنانية والافتقار الى المثالية بينما قد يقتصر مطلبه الوحيد على أن يعيش حياة طبيعية كالتى يعيشها الناس فى ليفربول وتولوز أو بوستون وينظر هذا الشباب بعين متشككة وساخرة الى المثاليات الاجتماعية التى أرساها الكبار ثم خانوها ..

وقد بعث طلبة المدارس بخطاب الى جولدا مائير فى ابريل سنة ١٩٧١ بعد ان رفضت السماح للدكتور ناحوم جولدمان بمقابلة عبد الناصر جاء

فيه . « عن طلبة السنة النهائية ، نعبر عشية دخولنا الجيش ، عن انتقاداتنا للسياسة التى تنتهجها الحكومة فيما يتعلق بمقابلة جولدمان لناصر . وكنا نعتقد حتى هذا اليوم اننا سوف نخدم البلاد ونقاتل طوال ثلاثة أعوام لأنه ليس أمامنا أى اختيار . ولكن وبعد أن أثيرت هذه المسألة، تبين لنا انه لو توفر مثل هذا الاختيار ، حتى وان كان بسيطا ، فاننا نتجاهله .. ان سياسة الحكومة تبدد فرص السلام ونحن نوجه لكم نداء نناشدكم فيه استغلال أى فرصة تسنح لاقرار السلام » . وقد أحدث هذا الخطاب دوى القنبلة داخل نظام الحكم . اذ تحدث البعض عن نزعة الانهزامية والعدمية دون مراعاة القلق الذى ينتاب هذا الشباب اليائس. وأثارت جماعات اليسار (ماتسبين وسياح) ومسرح النقد السياسى اللاذع (مثل مسرحية « ملكة الحمام » ، تضحية اسحاق ، وهى المسرحية التى تعرض أسطورة قديمة من التوراة تتعلق بالتضحية بحياة الشباب الذى كان الكهول الأنانيون يلقون بهم فى الهلاك باسم المثاليات القاسية وغير الواقعية) أثار ذلك غضب الكبار الذين وجدوا ان هذا الشباب المجادل والغاضب لم يعد يشبه فى شىء تلك اللبنات الصغيرة التى رعوها بكل العناية . ولم ينته النضال من أجل انقاذ هذا الشباب من مرض «الشك» واللاخلقية بل انه يمثل هدف زيتولون هامر وزير التعليم الجديد المتدين والذى لا يخفى ميوله للنشاط الروحانى لجماعة الجوش ايمونيم .

وظهر خوف جديد اكثر الحاحا يتمثل فى مشكلة الهجرة .

ففى عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ عبر ٢ر١٠ مهاجر أبواب الدخول الى الأرض المقدسة (منهم ٧ر٥٠٠ من الاتحاد السوفييتى و ٢ر٢٠٠ من الأرجنتين و ١٥٠٠ تقريبا من فرنسا) بيد أن ٨٠٠٠ من بينهم جاءوا لقضاء فترة مؤقتة فقط . وفى نفس الوقت خرج ١٥ر٠٠٠ شخص مهاجرين من البلاد . ومنذ عام ١٩٤٨ ترك ما يقرب من ٢٣٠ر٠٠٠ شخص (من بينهم ١٤٠ر٠٠٠ مهاجر) اسرائيل بينما لم يكن قد اندمج فيها سوى ما يزيد على المليون يهودى منذ انشاء الدولة : وانتقصت الهجرة ٣ر٩٪ من هذا المجموع .

ولا يمكن أن تحقق دولة اسرائيل ذاتها من خلال روح الصهيونية الا بالهجرة لأنها انشئت لاستقبال اكبر عدد ممكن من اليهود . وترمز كلمة « العليا » أى الصعود الى البلاد صعود بمعنى الارتفاع الروحى ، والتحول الكامل للفرد اليهودى الذى غسل نفسه ونقى روحه من بلاد المنفى . اما

انرحيل فى صورة يهود الشتات أى النزول باللغة العبرية فانه يهدم مرة واحدة التبريد الايديولوجى والأخلاقى للمشروع الصهيونى ، انها خيانة يعيشها المهاجر والمحيطون به وهم يشعرون بالألم والعار .

« مجموعة من البؤســـاء المســاكين » كذلك وصف اسحاق رابين ، رئيس الوزراء الاسرائيلى السابق ، أولئك المهاجرين الى الخارج . ولكن هذا الوصف فقد فاعليته لدى الراى العام الذى لم يعد يكتفى بالشعارات الجوفاء . ويفضل الجميع اليوم دراســة الوســائل التى قد تعيد الأبناء المفقودين فى الخارج والذين يتمسكون بشدة فى غالبية الأمر بوطنيتهم ، بدلا من معاملتهم كمذنبين . هذا اذا لم يكن من يريدون اعادتهم يفكرون فى دخيلة انفسهم فى أن يفعلوا بالمثل وذلك لأســباب شتى : الحصول على المال أو من اجل الدراسة وخاصة من اجـــل استنشاق الهواء الحـــر والاستمتاع بالمساحات الواسعة لان أطول رحلة فى اسرائيــل لا تتعــدى مسافتها أربعة الاف كيلو متر وتنتهى عند حدود لا يمكن عبورها . أن المرء يختنق فى هذا المجتمع حيث يندر التآلف لكثرة ما يقضى به التضامن ، ولتوالى بيانات الاذاعة وتسلط اعــلانات الوفيــات الكثيرة التى تنشر فى الصحف أو تعلق على لوحات المجالس البلدية . وثمة اتجاه انسانى يتغلب على كل ما عدا ذلك . وقد اندهش اريل شارون بطل حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ الذى أوفد الى الولايات المتحدة لاقناع بعض المهاجرين بالعــودة الى اسرائيل حينما التقى بالعديد ممن كانوا يخدمون تحت قيادته كضباط ويبلغ عدد المهاجرين فى نيويورك ١٥٠٫٠٠٠ اسرائيلى يعيش أغلبهم على الكفاف ونادرا ما ينجح أحد (مثل رئاســة لوريه أشهر رسام كاريكاتورى فى الصحافة الأمريكية) . ومن بين كل خمسة من سائقى سيارات الاجرة ثمة سائق يتحدث اللغة العبرية . وفى باريس أيضا وفى بعض المقاهى مثل مقهى السيلكت فى منطقة مونبارناس أو فى بعض المحال التجارية الصغيرة ، يزيد عدد المتحدثين باللغة العبرية التى تشوبها نبرة حنين .

ومن قبل وفى عام ١٩٦٦ ، أى فى عهد الانكماش الاقتصادى انتشرت نكتة مرة فى صالات التحرير وداخل الصالونات تقول « يرجى من آخــر من يغادر مطار اللد أن يطفى الأنوار ويضع المفاتيح تحت العتبة » . وبعد حرب عيد الغفران ازدادت حركة الهجرة ولم تكن هــذه المرة لأسباب اقتصادية ولكنها كانت ترجع اساسا الى الضغوط النفسية التى تعرض لها العديد من المناضلين الذين اكتشفوا ــ مثلما حدث فى عام ١٩٤٨ ــ

أن الحرب لا تكون بالضرورة سريعة ولا نظيفة . وأن ما كان يدعم الارادة الفولاذية لمؤسس الدولة هو نفسه الذى جعل أبناءهم يتراخون ..

أن الحرب مستمرة والسلام مرهون ويتزايد ابتعادا يوما بعد يوم . وبين هذين الشبحين توجد الحياة ــ أو ما تبقى فيها ــ بجرحها وآلامها وأشباحها بحيث لم تعد تشبه فى شىء الحياة الآمنة فى العواصم الغربية . وهذا ما يفسر بصورة كبيرة تفاقم الالم الذى لابد من ازالته والعنف الذى ينفجر فى الحياة اليومية فى صورة رياح شديدة ، والعصبية التى تنتاب بلدا تعيش فى حالة من الوهن العصبى الذى ساد وانتشر على الصعيد الوطنى كله ..

وكيف يمكننا أن ننسى أن هذه الدولة خاضت أربع حروب وأن وجودها قد تعرض للخطر ليس فقط من جانب جيرانها العرب ولكن ايضا من جانب عدد كبير من الدول وكيف نتجاهل أن ممارسى الضغوط الذين تتفاوض معهم اسرائيل يقيمون تحركهم استنادا الى ميثاق قومى يلزم الفلسطينيين الأعضاء فى منظمة التحرير الفلسطينين تصفية دولة اسرائيل واقامة دولة علمانية وديمقراطية لا يجهل أحد طبيعتها اذا ما تذكر وضع من يتمتع بالحماية ، طبقا للحق الدينى وهو الوضع الذى يحدده الاسلام للأقلية اليهودية والمسيحية والقبطية وغير ذلك والذى تستند اليه أساسا حتى الآن الحياة والنبض السياسى فى العالم العربى ؟

وكيف تصدق أيضا التعايش السلمى بين اليهود والعرب عندما يشاهد رجل الشارع فى اسرائيل على شاشات التليفزيون المذابح التى حدثت فى أيلول الأسود فى عمان بين الاردنيين والفلسطينيين والتى عرضتها التليفزيونات العربية ، أو فيما بعد المذابح التى دارت بين الفلسطينيين والمسيحيين المارونيين فى بيروت ؟

أن التشدد ورفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية (الذى رفضته الكنيست بعد انتخاب بيجين بأغلبية الأحزاب باستثناء الأحزاب الشيوعية وامتناع بعض نواب اليسار عن التصويت) والتمسك بالأراضى وتسلط فكرة الأمن ، كان له ما يبرره قبل زيارة الرئيس انور السادات الى القدس فى التاسع من نوفمبر سنة ١٩٧٧ ، فى الخوف من العالم العربى « الذى يرفض الاعتراف باسرائيل ويكن لها العداء وهو الذى يحيط بها » وقد صرح ماكس نوردو فى عام ١٨٩٧ بينما كان يرسى أسس الدولة اليهودية المقبلة مع هيرتزل بقولة : « ولكن هناك عرب فلسطين وهذا ما لم

اكن اعرفه » . والآن ، ولت هذه المرحلة وانتهت ويدرك اغلبيـــة اليهود فى الوقت الراهن ضرورة أن تندمج بلادهم فى مســـاحة الشرق الأوســـط اذا ما تخلى العرب عن ادعائهم القائل بأنهم أصحاب المساحة كلها .

ومن جهة أخرى يمكن أن نخشى من أن تثير زيادة النزعة الاستعمارية ، التى ترعرعت فى الأراضى المحتـــلة منذ عام ١٩٦٧ سواء اثنـــاء حكم حزب العمل أو حزب بيجين شكوك العرب فيما تدعيه اسرائيل من رغبتهـــا فى اقرار الســـلام .

وفى الحقيقة فان هذا الصراع يعد تافها ومثقلا بالمتناقضات التى يتعذر التوفيق فيها بينها لأن هناك شعبين يدافعان عن حقين مطلقين ومتناقضين ولأن الشعبين قد جعلا من كلمة شـــاربم وايزمان ، وأول رئيس لدولة اسرائيل « ان الذكرى حق » شعارا لكل منهما انهما شعبان يعيشـــان على ذكرى موتاهم أكثر مما يعيشان لتحقيق آمال أطفالهما .

بيد أنه فى البداية ــ حتى لو اسىء تقدير مدى المشكلة العربية ــ تمثل حلم مؤسس الصهيونية فى انشاء مجتمع مثالى عادل ومتفتح مع بعض الاتجاهات الابوية اللا واعية .

وهل بعد ذلك Montenegro آخر ؟ ابدا هكذا صرخ ارثور روبين مدير الوكالة اليهودية فى فلسطين فى العشرينات « نعم أن دولة اسرائيل ستعيد الفخر لكل يهودى وستحقق له الفائدة الاجتماعية التى كان يفتقر اليها فى مجتمعات الشتات » . وكانت الشعارات الرئيسية تتمثل فى التمرد على العمل وتجميع المهاجرين ونهضة الأرض ــ أنها الاشتراكية المتحدة من ماركس ومن أشياعه .

وتبدد الحلم افلا تصبح اسرائيل على حـــد ما قاله اموس أيلون مجرد متحف لأفكار القرن التاسع عشر يقام وسط ديكورات القرن العشرين ؟ هل ستصبح مثل مسرحية لتشيكوف اعاد دورينمات كتابتها ؟ وعلى أية حال فأن الايدولوجية القديمة لم تعد تؤثر على الواقع ! فلم تعد تسحر الشباب وستظل غريبة عن الطبقات الجديدة القادمة الى اسرائيل والمدفوعة برياح التاريخ القاتلة أكثر منها برغبتها فى الرحيل عن بلاد المهجر مثلما كان حال الرواد الاوائل الذين تركوا فى بداية هذا القرن ، مدارســـهم وجامعاتهم ومجتمعات الفيتو وقراهم وعائلاتهم للحضور الى اسرائيل من أجل « البناء والتشييد » .

وقد طرأ على الصهيونية ما يقوض كل الايديولوجيات المجسدة : تآكل السلطة وغروب الطاقات وتلقى صدمة الواقع والشعور بحلول التعب بعد النضال ، والغفلة بعد المرض والعبء بعد الرحمة . أو كما يقول مارتين بوبر بوضوح : « ان ما كان يمثل فى الأصل أمرا يتمسك به اليهود الفقراء قد أصبح هواية لليهود الأغنياء » .

وقد اسهمت الفضائح الكثيرة التى توالت خلال الاعوام الاخيرة فى التعجيل بتبديد شعارات الأمس .

الفضـــائح

ولا ترجع سيطرة حزب العمل على الحياة العامة لاسرائيل الى الاعوام الأولى لنشأتها فقط .. فمنذ الثلاثينات وفى معـــاهد المنظمة الدولية للصهيونية والوكالة اليهودية وفى « اليكوف » (وهى الجـالية اليهودية التى كانت تقيم فى فلسطين فى عهد الانتداب) استولى حزب المابای برئاسة داڤيـد بن جوريون على زمـام الامور منتصرا على الاحزاب الصهيونيـــة العامة والتحريفية التي يميل قوامها الاجتماعى الى ان يكون تجسيدا لقوام الطبقات المتوســـطة .

وفى بداية عهده كان حزب المابای يضم العمال ويدافـع عن مواقفهم الطبقية وذلك طبقا للتقاليد الماركسية لمؤسسيه الأوائل وهم أ. د. جودون دبير بورشوف (الذى شكل الجنـــاح اليســـارى لحزب المابای) ويبرل كاتزنبلسون واسحـاق تابينكى وتحت رعاية بن جوريون ما لبث « الحزب العمالى » ، الذى افتخر حتى الآن بصفته البروليتارية ان اصبح سريعـا حزبا للجماهير وتوضح فقرة من كتاب نظرى « للنبى المسلح » العجوز هذا الانتقال « من تمثيل طبقة الى تمثيل الشعب » . وسرعان ما صـور كاهن سدى يوكر مفهوم « ولاية الدولة على الطبقة » .

ومن جانب آخر ســيطرت الحركة الصهيونيـة العماليـة سريعا على المنظمات الحيوية مثل منظمة الهستادروت (الاتحاد العام لعمال اسرائيل) التى تشكل النقابة وصاحب العمل معا ، وذلك بوساطة المؤسسات الكثيرة التى انشأتها فى مختلف المجالات مثل الصحة والتعليم والاسكان واللهو . ولفترة طويلة وبصورة واسعة حتى يومنا هذا تخضع الحياة اليومية لهذه العلاقة مع المؤسسات المنضمة للحزب : فيولد الانســـان ويحيا ويتغذى ويلبس ويسكن ويتعلم بفضل الخدمات التى تعتمد بشكل كبير على هذه النقابة والتى لم يستطع حزب الليكود المنتصر فى ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ ان ينتزعها من العمال .

وحتى عهد قريب ــ فى نهاية حكم جولدا مائير ــ كان الشعار الذى نادى به بن جوريون هو : « الحكم بدون الجيروت وبدون الشيوعيين »

بمثابة قانون . ويشير بذلك الى أن قاعدة الائتلاف الحكومى كان لها أساس وطنى حيث ان الأحزاب الصغيرة التى كانت تنضم الى حزب العمل كى لا تختفى فى حزب المعارضة كانت لا تعترف سوى بحزب مابای الذى اصبح فيما بعد حزب الافودا (حزب العمل داخل المابای) .

واستمر الحال كذلك لدرجة ان الأسلوب السياسى للحياة العامة فى اسرائيل قد تشكل لمدة طويلة بالصهيونية الاشتراكية وعقلية قادته ـ اغلبهم قادمين من نفس المدن الصغيرة فى بولندا وروسيا ـ وطريقة حياتهم المتقشفة المصبوغة بنفحة عمالية تثير اليوم ضحك مجتمع أصبح اكثر وقاحة . بيد ان هذا الاسلوب قد تشكل بصفة خاصة بفضل « الهيمنة العمالية التى يدافع عنها بشدة حزب أصبح مع الأعوام حزب الطبقة المتوسطة ، حزب « ياكل كل شيء » تعرفت فيه جماهير المواطنين المحافظين على نفسها واتاح فرصة انتشار حب الغير وحب الاقارب وكذلك مولد طبقة جديدة من « الابارتيشكى » على اسوا طريقة بولشفية ، يعتمد وجودها واعانتها فى المقام الأول على رضا سكرتيرى الاتحادات والأقسام واللجان والأنظمة الأخرى التى نشرها الحزب فى الدولة بأجمعها .

ولم يساعد تطور « الكم » على التجديد الايديولوجى او الجراة الفكرية . لدرجة أن البعض ومنهم « اموس اليون » أستطاع أن يكتب وهو على حق فى ذلك ، ان المتمردين القدامى على القدر قد اصبحوا قدريين بدورهم . واتجه القادة القدامى الى انتهاج سياسة التشدد حيال العرب ولم ينصتوا الى مطالب او مشاكل الطبقات الاجتماعية الجديدة واغلقوا انفسهم فى حصون السلطة وفى مراكزهم القوية وكانوا لا يتمتعون بالجراة فى تحليلاتهم السياسية وتبع القادة القدامى والذئاب الشابة فى الحزب فى قلعة ضخمة تعادل الانطواء النفسى والسياسى . ومنذ ذلك الحين قاموا بأى عمل للاحتفاظ بالسلطة وفى بعض الأحيان للاستفادة منها مستخدمين أحط الوسائل : مثل شراء الأصوات فى الانتخابات ، وتحويل الأموال العامة الى صناديق الحزب والتجسس السياسى داخل الحزب نفسه وبين الروافد المتنافسة وممارسة الرشوة ونشر الافتراءات ضد الأعداء السياسيين . ان القائمة طويلة جدا لدرجة انها أسهمت كثيرا فى انهيار حزب العمل فى ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ .

ومع ذلك ، فان الأحزاب العمالية كانت قد تلقت ما يشبه الانذار اثر « زلزال « حرب كيبور . فعلى الرغم من الهدنة التى حظى بها نظام

الحكم القائم فى مجال الانتخابات بذل شارون اعتبارا من اليوم التالى للحرب مباشرة جهوده من أجل تجميع قوى المعارضة فى بديل ـ هو ليكود ـ لحزب العمل الذى يفقد اعتباره بصورة مطردة ، بيد ان الخلافات الداخلية والصراع على القمة من اسحاق رابين وشمعون بيريز وبصفة خاصة الفضائح الكثيرة التى تنفجر تباعا ، لم تترك لهذه الأحزاب السياسية فرصة التقاط الأنفاس .

ان طول الفترة التى قضاها العماليون فى السلطة قد دفعت عناصرهم السياسية المستهلكة الى مقاعد المهمين فى المحاكم وزنزانات السجون ومقاعد الاقلية البرلمانية أو صحراء النسيان المتمثلة فى المعارضة . أن صوت الشعب هو صوت الله .

وعندما تولى اسحاق رابين السلطة فى يونيو سنة ١٩٧٤ خلفا لجولدا مائير ، تنبأ له المراقبون السياسيون بمستقبل باهر وأعلنوا عن تدوم عهد جديد لحزب العمل المعجوز .. لقد كان رابين صانع انتصار الأيام الستة ـ على الرغم من التقرير الذى كتبه عزرا وايزمان وانتشر فى الخفاء والذى اتهم فيه رابين بأنه ضعيف الشخصية ـ وكان سفيرا ممتازا فى الولايات المتحدة ويقول البعض أن الحكومة الأمريكية تنصت لآرائه . ومنذ توليه السلطة صرح قائلا : « لن نستخدم السياسة التى سننتهجها مقياسين ولا ميزانين . سوف نبذل جهدنا لتطبيق العدالة حتى ولو تعلق الأمر بسياسيين سقطوا » ..

اى انه سيتم التضحية « بالابقار السمينة » (وهم الأشخاص الذين لا يمكن المساس بهم) على حد تعبير رابنوفيتش وزير المالية الذى خلف بنحاس سابير . ولا شك فى أن أول هذه الشخصيات من وجهة نظر أبينسوفيتش كان سلفه سابير .. ومنذ توليه الوزارة ظل الوزير الجديد يثير الشك فى ادارة بنحاس سابير الذى كان يدير ، فى الحقيقة ، وزارة المالية منلما يدير صاحب محل فى القرية محله الصغير ، منلاعبا بالمليارات فى دفتره الصغير الأسود حيث كانت تفيد بنود الميزانية .

وقد أمكن ارابنوفيتس أو يقول أن الحكومة الجديدة قد أنهت عهد « مجلة الشعب » ، وكان يعنى ان الاصلاح الضريبى الذى أقره سيساعد على « تطهير الجو العام » وتلك طريقة اخرى للاشارة الى أن بنحاس سابير لم تواته الشجاعة لاتخاذ اجراءات اقتصادية أكثر صراحة .. واكتفى

هذا الأخير بالاجابة على هذا الاتهام قائلا « عندما توليت الوزارة عـــام ١٩٧٠ لم أجد سوى ٣٧٠ مليون دولار فى خزانة الدولة ، ولدى مغادرتى تلك الوزارة تركت بها مليارا ، ٦٥٠ مليون دولار » .

ولم تكن هذه الانتقادات الأولى سوى مجرد مناوشـــات اذا ما قورنت بسلسلة الفضائح التى وقعت خلال السنوات الثلاث التى تولى فيها رابين الحكم .. فالواقع أن الجمهور ، الذى يعانى من فضـــول مرضى تغذيه الصحافة المنطلقة ، كان يرى ويسمع ما يجعله فى دهشة مطردة . فقد تلوثت أسماء أكثر الشخصيات الاسرائيلية حظوة ، الواحد تلو الاخر . ومن المجدى أن نتوقف عند الدور الذى تلعبه الصحافة الاسرائيلية الحرة والواسعة الانتشار (تعد النسبة المئوية للتوزيع مقدرة بالفرد الواحد من أغلى النسب فى العالم) والتى تستقى معلوماتها من أفضل وأسوأ المصادر الصحفية المتيره على الطريقة الأمريكية . فلو كانت فضيحة مماثلة لفضيحة ووترجيت قد حدثت فى اسرائيل لأسفرت عن نتائج فتـــاكة ان الاسرائيليين يقرأون كثيرا وربما يكتبون أكثر مما يقـــرأون . ويتعـــايش اليمينيون واليساريون فى نفس الصحيفة ويهاجمون بعضهم البعض من صفحة الى أخرى وبنفس التعطش الى الحقيقة والطهر الخيالى .. وتقدم الأذاعة والتليفزيون الدراما النفسية الحقيقية للمشاهدين الذين تطيب لهم مثل هذه الفقرات التى ترغم الرجال المعنيين على الادلاء بشهادات علنية والتى لا تشبه فى شىء الحضرية التقليدية التى تميز الأذاعـــة والتليفزيون فى فرنسا . وفضلا عن ذلك كان يتم القاء الضوء العام على شئون كثيرة بمجرد أن يتقـــدم صحفى بشكوى ضد هذا أو ذاك من الشخصيات ويعقب ذلك مختلف التظلمات وأقوال الشهود (الذين تكون أسماؤهم مجهولة فى معظم الاحوال) التى تسجل طيلة الساعات الاربع والعشرين لليوم على فيشة التسجيل الاوتوماتيكى فى الادارة الوطنية للبوليس .

ووقعت الفضيحة الأولى فى يوليو سنة ١٩٧٤ وهى المتعلقة بالبنك الانجليزى ــ الاسرائيلى .. أن الشبهات التى تحول حول هذه المنشـــأة المصرفية لم تمنع مدير البنك من ايداع مبلغ ٣٠ مليون مارك و١٠ ملايين فرنك فى فرع البنك بلندن .

وقام البنك فى عهد ليهوشوا بن سيون بمضاربات تتســـم بالمقامرة وتتعلق بأسعار بيع العملات والمعادن من طريق شركات لا وجود لهـــا فى الواقع . وقد أدت هذه العمليات الى أغلاق البنك . وتبدد مبالغ يقـــدر

بحوالى ٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية فى هذه العمليات وقد حكم على مدير البنك بالسجن مدة اثنى عشرة عاما لأنه سرق مائة مليون دولار من راس مال البنك وأفرج عنه فى اكتوبر سنة ١٩٧٧ . لاسباب صحية . ويقول البعض أن علاقاته مع عدد كبير من رجال الحكومة الجديدة لها صلة بهذا الاجراء . وعلى أية حال تسبب عدم حذر السلطات المالية للدولة فى ضياع اموال عامة لم تقدر قيمتها بعد .

وما انتهت مشكلة البنك حتى ظهرت فضيحة جديدة تتعلق بفرع شركة للقطاع العام وهى شركة « فيرى » التى بلغت خسائرها من المشروعات التى نفذتها فى الخارج خلال أعوام ٧٠ ، ١٩٧٤ ما يقرب من مائة مليون ليرة . وقد تم بيع هذه الشركة المتخصصة فى مواسير المياه فى عام ١٩٧٢ لشركة « سوليليونية » وهى فرع من شركات القطاع العام للهستادروت وتناولت الشكوك التى اثيرت من جراء افلاس شركة « فيريد » مجالا آخر غير المجال المالى يتعلق بالسياسة . فاذا كانت الهستادروت هى القلعة التى يحميها العماليون ، فهل استخدمت الخسائر الضخمة للشركة والتى غطتها النقابة لدى شرائها لها فى تمويل صناديق حزب العمل ؟ ان هذا السؤال سيظل مطروحا لمدة طويلة ..

وادى افلاس « انتر ناشيونال كريدى بنك » فى جنيف الذى يملكه سور تيبوردزنبوم الى الكشف عن سلسلة من الفضائح لن يكفى كتاب باكمله لشرح أساليب المضاربة والتزوير وانشاء الشركات الوهمية وممارسة الرشوة والسرقات التى مارستها مجموعة اشخاص مشهورين من المديرين ـ واشهرهم مشيل تسور الذى حكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاما ـ فى شركة « صندوق اسرائيل » وهو صندوق للاستثمارات العامة يضم مستثمرين من يهود الشتات من بينهم البارون ادموند دى روتشايلد .

وتفاقم سوء الجو العام المحيط بمختلف هذه العمليات ومس جميع الاجهزة الكبرى فى الدولة التى اتهمت الواحدة تلو الاخرى بأنها مهدت السبيل للجوء الى الخداع وقبول الموظفين للرشوة حتى وصلت الاتهامات الى حصن وزارة الدفاع ، وهو الذى كان بعيدا عن النقد .

ووضعت ثلاث فضائح أخرى اللمسات الأخيرة لاحتضار سلطة العماليين : وتلك هى قضايا بادليين وأدنير وأخيرا قضية رابين نفسه .

To: www.al-mostafa.com

وكان اشير بادلين ، الرجل النموذجي لحزب العمل ، وذلك الانسان المرح رغم تجاوزه الخمسين عاما قد مضى حياة طويلة كرجل عام قادته من العمل الجاهد كمناضل في خلية الى عتبة منصب محافظ بنك اسرائيل بعد ان شغل منصب رئيس صندوق التأمينات الصحية الهستادروت الذي يكفل معظم الخدمات الصحية العامة في اسرائيل . وكان على وشك ان يعين محافظا لبنك الدولة (وهو منصب يوازي منصب الوزير) ابتدا من اول نوفمبر سنة ١٩٧٦ عندما فجر الصحفي ايجال لافيف الذي يعمل في صحيفة هاعولام هازي (وهي صحيفة اسبوعية سياسية ساخرة يديرها النائب السابق اوري افينري ولا ترحم المنحرف الثرثار ولا الاباحية التي تحولت الى امر شائع ومحبب) ، وكشف عن فضائح الطفل المدلل لحزب العمل . فما هي التهم التي وجهت الى هذا الرجل الذي يعترف ببساطة انه يحب الحياة الرغدة ، والذي يلقى بأموال طائلة على موائد القمار في لاس فيجاس والذي يظهر دائما في المجتمع بصحبة عشيقاته المتتاليات ـ ومن بينهن محاميته ـ والذي يصرح في أحاديثه الى التليفزيون بأنه ينتمي الى الطبقة الراقية لكي يخفي خطاياه الواضحة ، لقد اتهم مرة اخرى بالمضاربات على الأراضي وفي العقارات وباختلاس أموال الدولة .

وقد تركته الدولة يواصل المفاوضات الشاقة مع الممرضات اللاتي كان اضرابهن من أقسى الاضرابات التي عرفتها اسرائيل ، ثم القى القبض عليه وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات .

كما فقد اعز أصدقائه وهو ابراهام أوفير وزير الاسكان (الذي تشبه حياته العملية حياة بادلين بشكل غير عادي) اعتباره وحيانه في آن واحد .. ويرجع عهد الاتهامات التي وجهت اليه الى الفترة التي عمل فيها مديرا لشركة الاسكان التابعة للهستادروت وتتعلق بقصور خدماته وادارته السيئة والامتيازات التي خص بها اشخاصا عاديين من اهله او المقربين اليه ..

ففي الثالث من يناير سنة ١٩٧٧ ذهب أوفير الى شاطىء البحر بالقرب من هرزليا وانتحر باطلاق الرصاصة على راسه . وفي هذه المرة لم يدن المتهم بيد ان موجة الاشاعات التي انتشرت وما ابداه زملاؤه من أعضاء الحكومة أو الحزب من عدم تعاطف ، قد دفعت بهذا الرجل الى الانتحار . ولن يتسنى لأحد معرفة ما اذا كان أوفير مذنبا أم لا ، حيث اغلق ملف قضيته فور الاعلان عن وفاته ..

وفى النصف الأول من مارس سنة ١٩٧٧ فان اسحاق رابين (الذى راس حكومة ائتلافية تتولى السلطة الى ان تجرى الانتخابات فى شهر مايو ، وذلك بعد اقصاء وزراء الحزب الدينى فى شهر ديسمبر قام بزيارة لرئيس الولايات المتحـــدة الجـديد جيمى كارتر .. وذكر الملحقون الصحفيـون الاسرائيليون ان الرئيس الامريكى ابدى تفهما كبيرا حيال وجهات النظـر الاسرائيلية واقام علاقات بالغه الود مع اسحاق رابين .

ومع ذلك فسرعان ما اعلن جيمى كارتر فى اول تصريح له ، ضرورة انشاء « وطن » للشعب الفلسطينى وعودة اسرائيل الى حدود سنة ١٩٦٧ وبعد انتخابات مايو لم يستطيع بيجين الا ان يعاتب منافسه السـابق لانه اخفى عن عمد اختلاف وجهات النظر بينه وبين كارتر لاســـباب تتعلق بالانتخابات .

وفى العاشر من مارس ذهب ثلاثة من موظفى السفارة الاسرائيلية الى البنك الوطنى فى واشنطن للحصول على مرتباتهم الاسبوعية واعلن لهم موظف الخزينة وهو يبتسم بطريقة بلهاء : « لقد زارتنا سيدتكم الأولى امس . انها رائعة الجمال حقا » .

ولم يتطلب الأمر من الصحفى ـ صحفى مرة اخرى ! ـ دان مارجالت من صحيفة هاآرتس الذى كان يعمل فى واشنطن ، سوى ان يطلب ايداع مبلغ خمسين دولارا فى حساب مدام رابين كى تنفجر المشـكلة بأكملها . ونحت أعين المراسل المندهش كتبت موظفة الخزينة على ظهر كراستها رقم الحساب وهو ٤٦٩٨٥٥٣ . وثمة شك فى ان يكون الصحفى قد حفظ الرقم عن ظهر قلب .

ورغم الزوجـان ان حســـــاب ليا رابين لم يتجـاوز ٢٠٠٠٠ دولار ـ ٢٠ الف دولار فى الحقيقة ـ وانهما فتحاه لتغطية النفقـــات الاخيرة لاقامتها فى واشنطن حيث كان رابين سفيرا لبلاده .. فهل كانت ليا رابين تجهل القانون الذى يحرم على الاسرائيليين فتح اى حساب فى الخارج ؟ . وهل كان رابين ...) يجهل بدوره وجود هذا الحساب ؟

ويحمل اسحاق رابين فى خطاب له نقله التليفزيون ـ واجمع المراقبون السياسيون انه كان افضل الخطب التى القاها فى حيـاته السياســـــة ـ نصيبا من المسئولية فى اخطاء زوجته وقدم استقالته .. وهبط اســمه بناء على طلبه من راس القائمة الى المركز العشرين بين مرشحى الحـزب

وتولى شيمون بيريز رئاسة الوزراة بالنيابة الى حين اجراء الانتخابات فى ١٧ مـــايو .

واخيرا تحقق حلم شيمون بيريز ــ ولكن فى ظل اية ظروف ! ذلك الحلم الذى راوده منذ بداية حياته السياسية حينما كان مع موشى ديان أحد المحيطين ببن جوريون العجوز . واخذ المتخصصون فى المسائل الانتخابية يقدرون حجم فرص الانتصار المتاحة أمام العمال بعد أن أصـــبح على راسهم رجل عرف بمواقفه المتشددة وربما استطاع أن يكسر شوكة الليكود المتطلع الى السلطة . أقلم يهزم بفارق بسيط فى المؤتمر الذى عقده حزب العمل قبيل الانتخابات لاختيار مرشحه حيث حصل على ١٤٠٤ صـــوتا مقابل ١٤٤٥ صوتا حصل عليها اسحاق رابين ، منافسه الذى لم يلازمه الحظ طويلا ، لقد قامت منافســـة بين الرجلين ، على القمة منـــذ الأيام الأولى لتولى رابين الحكم قبل ذلك بثلاث سنوات ..

صراع على القمة بين رابين وبيريز

ومن المعروف أن شيمون بيريز يمثل نتاجا نقيا للتكنوقراطية لا نهمه الايديولوجية كثيرا ويتبنى الاسلوب العملى ، وكان عضوا فى جناح رافى الذى يمثل الاتجاه الأكثر يمينية داخل حزب العمل . وكان من الشبان الثوريين واسهم فى ادارة وزارة الدفاع بالتعاون الوثيق مع بن جوريون . ويشتهر بيريز بولائه لفرنسا نتيجة ذكريات قديمة يملؤها الحنين الى شهر العسل الفرنسى ــ الاسرائيلى والى عمله المشترك مع الفرنسيين فى باريس خلال المشتريات الكبيرة الحجم من الأسلحة فى الخمسينات من القرن الحالى ..

بيد ان بيريز يعد أكثر تشددا من زملائه أعضاء الحزب فيما يتعلق بمستقبل الأراضى ولا يؤيد تقديم التنازلات بل ويناصر اقامة المستوطنات فى الضفة الغربية لنهر الاردن . وقد تزايد عدد المستوطنات التى لم تقمها الحكومة وكان ذلك يحدث فى معظم الأحوال ضد رغبة أسحاق رابين والحمائم من حزب العمل وعلى مسئولية بيريز بوصفه وزيرا للدفاع .

وبدات المنافسة بين الرجلين فى المؤتمر الاول الذى عقده الحزب لاختيار خليفة جولدا مائير التى انسحبت اثر شعورها بالتعب وخيبة الامل من جراء عمليات التشكيك فى سلطتها . وفى هذا المؤتمر ايضا ، كان الفارق بين الأصوات التى حصل عليها الرجلان ضئيلا للغاية حيث بلغ ٤٤ صوتا . ولم يمنع ذلك شيمون بيريز (الذى اصبح الرجل الثانى فى الحزب) من انتهاج سياسة شخصية بحته هاجمها رئيس الوزراء عدة مرات ، ذلك أن تشدد بيريز فيما يتعلق بالأراضى كان يهدد بدفع حزب المابام الأقرب الى اليسار ــ الى خارج الائتلاف الحاكم .. وقد انعكست الخلافات بين الرجلين على الحزب من الداخل فانقسم الى معسكرين بين مؤيدى بيريز وانصار رابين .

ولم يخف بيريز نواياه عند اقتراب موعد انتخابات عام ١٩٧٧ . فقد ابد مناقشة « ديمقراطية » جرت داخل الحزب ورشح نفسه ضد رابين رئيس الوزراء الذى كان مؤيدوه يرون انه يجب ان يتم تعيينه بصورة اجماعية حفاظا على « وحدة الحزب » .

وقد اتاح القدر الساخر للذئب الشاب الذى انهزم مرة اخرى عشية الانتخابات فرصة أخيرة بقيادة حزبه الى النصر ولكنه كان مجـــرد منفذ للوصية .. وعاد لينتظر العودة المحتملة الى السلطة مثله فى ذلك منافســـه اسحاق رابين الذى لم ير بعد أن مجال عمله العـــام قد انتهى ، او ربما ليبحث ـ من يدرى ؟ عن مخرج مثل زميله السابق موشى ديان وايضـــا وبلا شك أبا ايبان الذى كان زميله فى المواجهة مع رابين تطلعا الى ممرات السلطة التى يشغلها الليكود الان ؟ .

عملية عنتيبى

بينما تبددت الآمال التى علقت على مجموعه رابين ـ بيريز ، وقع حدث خفق لهذه المجموعة آخر توهج لها : وهو عمليـة عنتيبى فى صيف سـنة ١٩٧٦ .

فقد اختطف الفلسطينيون والالمـانيون طائرة فرنسية وارغموها على الهبوط فى مطار كمبالا . حيث احتجزوها بالتواطؤ مع السلطات الاوغندية . وبلغ الأمر بعيدى أمين : الشرس الذى يشين قارة بأكملها ، حد زيارة رهائن الطائرة المحتجزين فى صالات المطار الذى بناه الاسرائيليون فى فترة التعاون الاسرائيلى ـ الاغندى . الم يحصل عيدى امين على شارات رجال المظلات التى يحملها بكل فخر بعد أن امضى فترة تدريب فى صفوف جيش الدفاع الاسرائيلى ؟

وبسرعة فائقة قام الارهابيون الالمان بعملية فرز للركاب حيث فرقوا بين اليهود وبين الآخرين . ومنذ ذلك الحين اقتنعت السلطات الاسرائيلية بعدم جدوى اجراء اية مفاوضات لان التفاوض لن يحول دون تنفيذ القرار الخاص باعدام الرهائن اليهود وهو القرار الذى تأكدت صحته بعد الافراج عن الركاب عن غير اليهود .

الفرز : ان الكلمة اصابت الراى العام الاسرائيلى بصـدمة لانها توقظ لديه مرة اخرى ذكريات اليمة عن عملية الفرز التى اجراها فيما مضى الالمان ايضا وهكذا كان التاريخ يكرر نفسه وكأنه مسرحية مأسـاوية فمازالت ذكرى النازية تؤلم هذا الشعب الذى قرر الا يكون لعبـة فى يد القدر . مهما كان الثمن ، وان يرسى ضرورته الذاتية ويقود مصيره كيفما شاء وستكون عملية عنتيبى عملية مضادة لعملية أوزويتشى . أوزويتش حيث كان يتم انتقاء الذين سـيحرقون فى الافران وترك الذين سيؤجل اعدامهم مؤقتا بسبب الأعمال التى يقومون بها .

عندما كان أطفالنا يبكون على القنصلية
كان العالم يلزم الصمت

انها أبيات الشـــاعر الاسرائيلى ناتان النيرمان وتدل ، افضل من اى تحليل ، على التسعور بالعزلة الذى يلازم شعبا اصبح ــ اوهو الى الابد ؟ ــ حذرا تجاه العالم ويقول الذين نجوا من معسكرات التعذيب انه ــ اذا كانت عملية مثل عملية عنتيبى قد وقعت من قبل ، فربما ما كتب لعملية اوزويتش ان تحدث ..

وقد تركت الجراح التى خلفتها عملية اوزويتش بصماتها على الحساسية اليومية للاسرائيليين الذين اكسبتهم التجربة صلابة والذين فقدوا بلا شك كل ميل الى انتظار الخلاص واصبحت ارادة الحياة والبقاء قوية لديهم . وهم يفضلون التضحية بانفسهم على الموت اذعانا لارادة غيرهم . تلك هى روح الماسادا .

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ ظهر كتاب بعنوان (حوار بين المقاتلين) وصف الشكوك والآمال والتساؤلات التى عاشهـا الجنود الذين نجوا من نيران الحرب . وانتشرت نكتة بين آلاف النكت ، تقول ان أحد القادة قال « اعتقد أن الحمل سيعايش الذئب معايشة سلمية فى نهاية التاريخ ، مثلما وعدنا الأنبياء . ولكن حتى فى هـــذه الحالة افضـــل أن اكون انا الذئب » .. ولا يحتاج ذلك الى تعليق .

ودخلت عملية تحرير الرهائن بوساطة الفدائيين الاسرائيليين التاريخ . ومهما لا شك فيه انها فتحت فصلا جديدا فى الســـياسة التى تنتهجهـا الحكومات تجاه الارهاب الدولى .. وثارت موجة من الاعتراضـــات على المبادرة التى اتخـــذتها اسرائيـــل لتحرير رعاياها ــ على الرغم من المديح الرسمى النادر وموافقة الراى العام العالمى الذى ادهشـــنه جراة الجنود الاسرائيليين الشبان . وبعد انقضاء عام على عملية عنتيبى حظيت العملية التى قام بها الكوماندوز الألمـــان لتحرير ركاب طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا كانوا محتجزين كرهائن بتأييد اجماعى وبامتداح كثير من الحكومات ومن بينها الحكومة الفرنسية ، التى لم تبد اى تشدد حيال الابتزاز الارهابى عندما افرجت عن أبو داوود .

البديل المستحيل

استحلفك بالله أن تغير الحكومة تفكيرها
لاني أوكد لك أن هذا التفكير سيقودكم الى
الهاوية »

اليكس دى توكفيل

خطبة فى الجمعية الوطنية

قبل ثورة عام ١٩٤٨ بفترة وجيزة

الصهيونية وتياراتها

غداة حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، فرض لفظ التغيير نفسه بقوة فى مصطلحات السياسة ونودى بهذا اللفظ السحرى بكافة اللهجات ، كما ظهر فى جميع المقالات الافتتاحية . فقد بدت خريطة اسرائيل السياسية حتى الآن ثانية كما ورثتها الدولة اليهودية عن المسرح القديم للسياسة الصهيونية دون أن تطرأ عليها تقريبا أية تغييرات .

فعندما كتب تيودور هرتزل — وهو ليبرالى تقليدى من القرن العشرين — عن الدولة اليهودية ، لم تكن النظرية التى صاغها وسميت بالصهيونية ترجع الى التوراة بقدر ما كانت ترجع الى مازينى وغاريبالدى . ومن المؤكد أنه كان يعى روابط الذكريات والحلم التى تربط الجماهير اليهودية بالدولة الاسرائيلية . ولم يكن الدافع وراء ذلك أية مهمة تبشيرية ولا أية نظرة اجتماعية واضحة . وانما كان الدافع صرخة « الموت لليهود » التى سمعها — وهو صحفى نمساوى يعمل فى باريس — فى فناء الكلية الحربية حينما كانوا يجردون القبطان دريفوس من رتبه ، وقد كان دريفوس ملهم فكره وعمله .

فمنذ عام ١٨٩٧ وهو تاريخ أول مؤتمر صهيونى انعقد فى مدينة بال وحتى العشرينات كانت الصهيونية تيارا سياسيا يرتبط الى حد كبير بموجة يقظة القوميات . فبقيام الثورة الروسية فى عام ١٩١٧ ، وانبعاث الآمال المتولدة عن الاشتراكية ، ونمو النظريات الكبرى للتقدم الاشتراكى — التى تأثر بها بعض يهود أوروبا — رغم انهم لم يكونوا روادها — كان هناك عدد كبير من أولئك الذين يريدون الجمع بين الصهيونية والاشتراكية .

وبنفس الصورة وكرد فعل لذلك ظهرت نزعة صهيونية اكثر وطنية فى صورة « تقليدية » ، كان مناحم بيجين أحد أنصارها . ولم تتردد هذه الصهيونية فى استخدام شعارات أكثر تشددا من برامج المعتدلين « التى تطالب بأدنى حد من المطالب » واكثر تشددا من مواقف الحركات الوطنية (التى تطالب بزى موحد ، وتنظيم الاستعراضات العسكرية ، والتدريب شبه العسكرى) . وأخيرا ظهر معسكر دينى تبنى مضمون الصهيونية

الديني المؤثر بهدف الربط بين الدين اليهودي وضرورات قيام دولة حديثة وأخذ يرسخ جذوره في الحركة الصهيونية .

والتقت جميع هذه القوى ـ التي تغيرت الى حد ما ـ على مقاعد أول برلمان اسرائيلي .

ولكن منذ الثلاثينات ، وبفضل شخصية بن جوريون الملهمة ، ونشاط بعض الرواد الذين كانوا يحلمون بالخلاص الاجتماعي بالعودة الى أرض اسرائيل ، وخاصة بفضل بعض الانجازات غير العادية التي شكلت وجه اسرائيل مثل الكيبوتزات ، والتعاونيات ، وجماعات الدفاع الذاتي الخ .. بفضل كل هذا شكلت الصهيونية العاملة الى حد كبير المجتمع الاشتراكي الصغير ، وتركت بصمتها على جميع مؤسسات الدولة الجديدة التي انشئت عام ١٩٤٨ . الأمر الذي ترتب عليه اضفاء الطابع السياسي على الحياة العامة ، حتى داخل الجيش الاسرائيلي (ولا يخفى على احد أن آريل شارون هذا الرجل الاسطوري لم ينجح أبدا في تولي منصب رئيس أركان الجيش الاسرائيلي (تسمال بسبب تعاطفه مع حزب حيروت حزب بيجين) . كما ترتب عليه منذ المعارضة ويجدر بنا ألا ننسى انه اكتنف الاعوام التي سبقت ميلاد الدولة الصهيونية جو أزمة سياسية خطيرة ومصادمات أخوية بين الاتجاهات المعتدلة (بقيادة بن جوريون) والاتجاهات الوطنية (بقيادة بيجين) . حتى ان المعارك التي شنت ضد البريطانيين ، وعمليات الاعتداء ، ومسلك جماعة الايرجون في بعض العمليات كل هذا جعل بعض أنصار المعسكر العامل يصفون بيجين وأنصاره بأنهم «فاشيون» وظلت التمزقات وصكوك الحرمان لفترة من الزمن سمة من السمات المميزة للحياة السياسية الاسرائيلية .

ونذكر هنا مثلا من بين آلاف الأمثلة أن العجزة والمقاتلين في حزب الاستقلال الذين قاتلوا بين صفوف الايرجون أو الليهي (أوجماعة شترن) التي تمخض عنها فيما بعد حزب حيروت حزب بيجين ـ وارامل هؤلاء المناضلين الذين سقطوا في معارك عام ١٩٤٨ لم تقم خزائن الدولة بصرف معاشاتهم الا بعد انتهاء الحرب بستة أعوام بفضل قانون عام ١٩٥٤ الذي صدر متأخرا . في حين أن أعضاء الهاجانا (جيش الحركة العمالية) انضموا على الفور الى جيش الدفاع الاسرائيلي الجديد كما قامت الدولة بصرف مرتباتهم .

وحقيقة القوة ان الحركة العمالية فى اسرائيل اصبحت ــ من خلال احزابها ، ومؤسساتها ــ هى والدولة شيئا واحدا ــ الى حد تملكها لها ، كما يقول البعض ، والى درجة أن هذه الحركة لم تتخيل فى يوم من الأيام أن تفقد هذه السلطة .

ولكن عندما عهد العمل الديمقراطى بالحكم الى الخصم الأزلى يوم السابع عشر من شهر مايو عام ١٩٧٧ ــ فى مجتمع ظل يطبق النظام الديمقراطى بصورة سليمة رغم استمرار الحرب فيه ــ حينئذ اتخذت الحادثة صورة كارثة تاريخية .

فقد اخذ استغلال السلطة ، وازمة الثقة ، ووهن الجهاز الحاكم ، والفضائح والفساد ، والعفن النفسى ، وقلة التجديد الايديولوجى ، اخذت كل هذه الأسباب تتكاتف مع بعضها لاسقاط الأحزاب العمالية .

وهكذا حل الاحتفاظ بالحكم بأى ثمن محل مبادرة وجراة الآباء المؤسسين الذين اعطوا لاسرائيل احدث سماتها واكثرها تطورا تلك السمات التى يعترف ابناؤهم اليوم بأنهم اول من خانوها فماذا عن الكيبوتز ؟ ان الكيبوتزات التى كانت بالأمس مجتمعا جريئا ، وثورة فى الحياة اليهودية والتى تشغل مراكز الصدارة فى الدفاع والخبرة الاشتراكية اصبحت اليوم نوادى مغلقة وجزرا للرجاء والسكينة الايديولوجية فى مجتمع متحرك متغير ونفوذها آخذ فى الاضمحلال رغم ان ابناءها لا يزالون حتى اليوم يقدمون للجيش قوات من خيرة قواته . وهم « أبناء حلم » اسرائيل كما وصفهم برونوبتلهيم .

وماذا كان مصير الهستدروت ؟ ان الهستدروت الذى كان بالأمس بوتقة سياسية واقتصادية حقيقية للامة الاسرائيلية وهى فى طور تكوينها اصبح اليوم حكرا على بعض الشخصيات البارزة الصغيرة التى فقدت صلتها بالطبقة العاملة . وظلت أعنف الاضرابات التى شهدتها اسرائيل فى السبعينات مثار خلافات مستمرة بين قيادة الهستدروت واللجان المتوحشة التى نشأت فجاة فى الموانى والمصانع والشركات .

ولم يختلف اولئك الذين تولوا الحكم بعد تلك الوجوه الأسطورية عن غيرهم من الساسة اذ اخذوا يعجلون بانهيار حزب أهلكته الخلافات ومساوىء أعضائه .

فبعد قيادة بن جوريون أو جولدا مائير التى لم يشاركهما فيها شريك يشبب الصراع بين خلفائهم : فكان الالتحام بين رابين وبيريز بداية الانهيار

ولم يكفل هذا الصراع ممارسة الديمقراطية داخل هذا الحزب ، الذى تخللته الشقاقات ، وانما أوجد فيه خلافات لم يفق منها .

ومن جهة أخرى كان التحالف المؤقت مع حزب مابام داخل كتلة معراخ الائتلافية دائما موضع تشكيك دائم من جانب الحمائم فى حزب مابام الذين هالتهم المواقف المتشددة التى انتهجها شيمون بيريز .

ان حزب مابام الذى حاول فى بادىء عهـــده الجمع بين الماركسيـــة والصهيونية ، الى حد انه بكى وفاة ستالين فى عام ١٩٥٣ قد خفف من اتجاهه نحو اليســار الى حد كبير الى حــد انه اتجه دون أن يشعر نحو اشتراكية باهتة انحصرت داخل كيبوتزاته ولم يعد يقدم على أى مبادرة سياسية ذات شان .

وترتب على تعايش حزب مابام مع حزب مابای أن اصبح الأول مجرد قوة دعم . فاخفى زعماء هذا الحزب خوفهم من العودة الى المعارضة تحت شعارات بالية ، حتى ان المعركة من أجل الحــوار مع الفلسطينيين ضــد استعمار الأراضى كانت تدور خارجه وبوســاطة رجال لم يعودوا معروفين فى مصطلحات « الصهيونية العمالية » القديمة .

« ان هزيمة ١٧ مايو تمت بتدبير منا » كان هذا قول دافيد هاكوين اشهر وجه من وجوه حزب مابای .

« والدين سيد السلطة » هى كلمة يشاو ليبوفيتز الابن العاق الذى بلغ السبعين من عمره . وليبوفيتز رجل لا يلتزم بالتقاليد ، متشدد فى الدين اليهودى ، ولكنه فى خلاف دائم مع سلطات الدولة القائمة .

وهذه الكلمة رغم قسوتها الا أنها على قدر من الصحة فيما يبدو . ان الحزب الوطنى الدينى الذى كان بالأمس عضوا فى الائتلاف الحــاكم مع حزب العمل ، والذى اصبح اليوم عضوا مع كتلة ليكود ففى هذا الائتلاف كان هدفه الوحيد الحفاظ على المكاسب التى منحتهــا السلطة للدين فى الدولة مثل احترام عطلة يــوم السبت حيث يعطل العمل بالمؤســسـات الوطنية ، ووجود مجموعة من المدارس الدينية المستقلة التى تقوم الدولة بتمويلها ، والاعفاء من الخدمة العسكرية بالنسبة لطلبة مدارس التلمود

والبنات اللائى يتبعن التعاليم الدينية ، والالتزام باحكام الديانة اليهودية ، فيما يختص بالغذاء ، فى الأجهزة العامة الخ ..

فضلا عن أن حزب ماندال الوطنى الدينى قد ركز جهوده فى الأعوام الاخيرة على مشكلة اعتناق اليهودية ، ذلك أن مسألة : «من هو اليهودى ؟» مسألة تتسغل بال المسرح السياسى منذ أن أثارها بن جوريون حينما استشار خلال الستينات مجموعة من المحاخامات والعلماء والمدرسين اليهود . وهو سؤال غريب يطرحه هذا الشعب الغريب الذى يبحث دائما عن مشكلات ليس لها حلول . الا أن هذا الأمر له اهمية خاصة وان « قانون العودة » ــ وهو قانون تنظيمى فى دولة لا يوجد بها حتى الآن دستور مكتوب ، وانما مزيج من القوانين اليهودية والتركية والبريطانية والفرنسية وحاليا قوانين اسرائيلية هذا القانون يسمح لأى يهودى يريد ان يكون اسرائيليا أن يصبح كذلك اذا ما تقدم بطلب بهذا المعنى عند وصوله الى اسرائيل . وعلى أية حال فالبطاقات الشخصية فى الدولة اليهودية تحمل هذه البيانات : المواطنة الاسرائيلية : والجنسية اليهودية (أو المسيحية ، أو الاسلامية ، أو الدرزية) .

ان القانون اليهودى التقليدى كما أعد فى التلمود الموسع والمقنن فى دستور الهالاخا يؤكد أن كل يهودى هو كل من ولد من أم يهودية ، وكذلك كل من اعتنق اليهودية وفقا للاصول ــ المعقدة والدقيقة ــ التى قررها المحاخامات فى تقنين بالغ الدقة . ورغم ان اليهودية قد مارست عبر التاريخ أو على الأقل فى بعض مراحله عملية تبشيرية هامة ، الا أن قلائل هم الذين يسعون اليوم الى اعتناق اليهودية . والحالات الأكثر رواجا بصفة خاصة تلك المتعلقة « بالزيجات المختلطة » والتى يرغب فيها أحد الزوجين اعتناق الديانة اليهودية التى يعتنقها الشخص الآخر . واليهودية اليوم ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة تنقسم الى تيارات تعرف بمدى التزامها أو عدم التزامها بأحكام الدين . « والتيار المعتدل » « أو التيار الحر » على سبيل المثال لا يهتم بالاجراءات البالغة التعقيد التى يهتم بها المتشددون عند اعتناق اليهودية .

فهؤلاء الذين تبنى آراءهم الحزب الوطنى الدينى وكذلك المتشددون من تشكيل اجودات اسرائيل (هو تشكيل أكثر تشددا من حيث موضوع الالتزام الدينى) وهؤلاء يريدون أن يقر « قانون العودة » منح الجنسية الاسرائيلية لليهود الذين اعتنقوا الديانة اليهودية وفقا لدستور «الهالاخا» . ويستندون فى ذلك الى الاستمرارية التاريخية والدوجماتية للديانة

اليهودية . ويدعون الى الحفاظ على وحدة الشعب وفقا لذلك القـــانون الذى أعطى ــ على مر القرون وفى جميع مناطق الشتات اليهودى ــ للديانة اليهودية تلك الصورة التى لا تزال تحتفظ بها حتى اليوم ، وعلى نحو لا يمكن للمستقبل نفسه أن يغير منها .

وعدا هذه النقطة التى ظلت مثار جدل حتى الانتخابات الأخيرة ، أيد الحزب الوطنى سياسة الحكومة التى كان الحزب يعتبر سندا لا غنى لهـا عنه . الا أن تحولا قد حدث بصعود نجم بعض الشـــباب المناضل بين صفوفه مثل زيفولبين هامر ، وزير التعليم الحالى أو اهرون أبو هاتسيرا وزير الأديان فى وزارة بيجين ــ الذين يؤيدون آراء وتصرفات المسئولين فى كتلة جوسن اعونيم (كتلة الايمان) ومعظمهم من حركات الشـــباب فى الحزب الدينى أو مدارســـه .. وهم أكثر عينيه بلا شك من أولئك الذين كانوا فيما مضى يدعون الى الجمع بين اشتراكية رسل التوراة واتبـاع تعاليم الدين فى المستعمرات الدينية . وفى رأيهم أن أرض اسرائيل كلها أرض مقدسة وعد الله بها الأنبياء من سلالة ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وهم يعتبرون اقامة المستوطنات فى الأراضى المحررة فى اليهودية والسامرة واجبا دينيا . وتحالفهم اليوم مع كتلة ليكود ليس بلا شك تحالفا عرضيا كما كان بالأمس تحالفا أوثق حيث يبشر ــ كما سنرى ــ بعودة الديانات اليهودية الى قوتها كدين وأيضا كايديولوجية بديلة عن الصهيونية العلمانية الانسانية ذات المطامع العالمية ، التى أسسها الشباب المتمرد فى روسيا وبولندا الذين جاءوا الى اسرائيل هربا من أسلوب حياة المنفى وقيمها التى كانت اليهودية جزءا لا يتجزأ منها .

فى هـذا الجو الفاسد الذى اتسم به أواخر عهد حكومة رابين فى اشهرها الأخيرة ، لم يدهش الجمهور الاسرائيلى من ظهور نجم جديد فى سماء سياسة البـلاد : ايجـال يادين رئيس أركان الجيش الاسرائيلى (تسحال) الذى تحول الى علم الحفريات بعد خروجه من الجيش . فهذا الأستاذ الذى يناهز الثانية والستين من عمره ، والذى يشبه فى ملبسه وقلة هندامه السيد المزارع ، والذى لا يرفع من فمه أبدا هذا الفليون الذى لا يفارق الرجل الجامعى له اتجاهات لا يمكن التنبؤ بها ، فقد ولد فى القـدس فى أسرة من أكثر الأسر ثراء بحى رهافيا البورجوازى وهو يعتبر فى نظر الشعب الاسرائيلى بصفة خاصـة مؤسس احـدى العبادات الوطنية الحقيقية وهى عبادة علم الحفريات . فقد اكتشف

عام ١٩٦٣ على راس جيش حقيقى من الطلبة الاسرائيليين والأجانب ، ومن المتطوعين من كافة طبقات الشعب الذين ضحوا بأجازاتهم من أجله، اكتشف ، تلك الأطلال الضخمة والآثار المثيرة لقلعـــة ما سادا فى صحراء اليهودية المطلة على البحر الميت .

وكانت هـذه القلعة المقامة على جبل صخرى يطل على مفترق طرق استراتيجى فى المدينة اليهودية القديمة آخر معقل من معاقل مقاومة اليهود للغـازى الرومانى . وسقطت فى عام ١٣٥ من عهـدنا . وقد روى لنـا فلافيوس جوزيف مؤرخ الثورة اليهودية الذى قتله الرومان ، هـــذا الانتحار الجماعى لآخر المحميات اليهودية الذى شمل أطفال ونساء وكهول ومقاتلين .

وعلم الحفريات هـــذا عبادة وطنية لأن الاسرائيليين يريدون بأصرار شبه مطلق العثور على آثار ماضيهم فى هذه الأرض الزاخرة بالأحداث التاريخية ، وذلك بحفرها لاستخراج اى شقفة فخارية منها ، وأى حجر يمكن أن يثبت ويؤكد صحـــة الشرعية التاريخيـة لوجود متواصل على أرض يدور حولها جدال . والاسرائيليون يتشبثون بكل قواهم بهـذه الأرض التى تشهد بقاياها الجغرافية على ملكيتهم لها ، وان كانت الصورة الانسانية تؤكد بأنها لم تعد أرض مشاع .

وهى عبادة وطنية أيضا لأنه منذ اصلاح قلعة ما سادا اســتبدت بالأمة الاسرائيلية هذه الفكرة التى شغلت هذه الأماكن ، وهى « ان قلعة ماسادا لن تسقط ثانية » ، ذلك القسم الذى أقسمت به على هـذه الصخرة دفعة من وحدات صغيرة من الجيش قبل أن يتم استرداد حائط المبكى . ان فكرةقلعة ماسادا «التى يستشهد بها عادة لتاكيد صلابةشعب لايلين طالما أطاحت به أهواء التاريخ الدامية على الرغم منه ، ان هـذه الفكرة هى أولا رغبة هذا الشعب الأكيدة فى أن يحيا شامخ الراس ، صلب العود .

وقد اعتبر ايجال يادين فى جوانب عديدة ديجولا آخر ، ولكن على الطريقة الاسرائيلية اذ يمكن الاستعانة به هو الآخر فى ساعة الأزمة .

ففى غـداة حـــرب أكتوبر عام ١٩٧٣ عقـد يادين اجتمـــاعا بلجنة « اجرانات » التى كلفت بالتحقيق فى « الاهمال » الذى دفع باسرائيل الى حافة الكارثة . ومنذ ذلك الحين اخذت حركات الاحتجاج التلقائية

تميل الى جانب هذا الجنرال عالم الحفريات على أمل أن يقرر تخطى الهوة التى تفصل بين مزلته الدراسية ومستنقعات السياسة .

وقد سنحت الفرصة لهذه الحركات بعد ظهور يادين فى احدى البرامج التليفزيونية الشهيرة بعنوان « موكيد » حيث أعرب عن وجهات نظر على الأقل جديدة ـ بعيدا عن الاعتبارات المألوفة الخاصة بعلم الحفريات ـ بخصوص الأزمة التى تقلق المجتمع الاسرائيلى قلقا شديدا

واثر ذلك على الفور زادت شعبية يادين بسرعة فى استطلاعات الراى العام الذى كان يجهل حتى الآن وجود يادين وهرعت معظم الأحزاب ترسل اليه مبعوثين حاولوا ـ ولكن عبثا ـ الاستفادة من هذه الجلسة المفاجئة .

ونجح مؤسسوا حركة شينوى ، حركة التغيير ـ ومن بينهم أمنون روبتشتاين ، الصحفى الشهير بصحيفة هارتس الصحيفة اليومية الكبرى المستقلة فى تل ابيب ، ومائير اميت رئيس المخابرات السابق ، وبعض الجامعيين ، وبعض كوادر القطاع الخاص ، والصفوة من التكنوقراطيين وكذلك بعض الشباب المناضل ، من ابناء بعض الدول العربية التى تسعى لحل مشكلات هذه الطوائف العربية المغبونة ـ داخل النظام السياسى الحالى ـ نجح مؤسسو هذه الحركة فى ضم حركتهم الى الحزب الديمقراطى برئاسة ايجال يادين . فما لبث أن أسفر عن مولد حركة « واسعة » الحركة الديمقراطية من أجل التغيير . التى أصبحت حركة ذات رواج وكانت أول مظهر لحزب جماهيرى جديد (وهى جماهير لم تتجمع فى المدن الشعبية بقدر تجمعها فى الحرم الجامعى ، ومكاتب المحامين والضواحى الأنيقة) . وكان أول تشكيل يفخر بتنظيم انتخابات داخلية سرية لتعيين مرشحيه فى قائمة الانتخابات . فقد كانت الأحزاب الكبرى فى الحقيقة تفضل حتى الآن أن تتم التوزيعات الدقيقة بين الجماعات فى سرية فى لجان محدودة من رجال الدولة ، أو فى اقتراعات رمزية برفع الأيدى حيث كانت النتيجة معروفة مقدما بسبب الصراع الخفى على النفوذ بين الأشقاء الأعداء فى نفس الحزب .

ومن نقاط القوة أيضا فى برنامج داش مطالبته باجراء اصلاح انتخابى . فحتى الانتخابات الأخيرة كانت البلاد تقترع فى اقتراع بصوت واحد فى جولة انتخابية واحدة ، تعتبر فيها البلاد دائرة واحدة عليها أن تختار قائمة وطنية . وبطبيعة الحال لا يكون النواب المنتخبون

مسئولين مباشرة أمام الناخبين . ولكن اجراء انتخابات اقليمية قد تساعد على مولد جيل جديد من رجال السياسة ، جيل ينحدر من طبقات الشعب الجديدة جيل يعرف مشاكل هذا الشعب ، بدلا من أن يؤكد النظام الحالى سيطرة الأجهزة الحزبية على تشكيل البرلمان .

ولا شك ان انتخابات ١٧ مايو حين أعطت لحزب داشن ١٥ مقعدا لم تكن تشكل نصرا واضحا لكتلة ليكود بقدر ما كانت تشكل هزيمة لحزب يعراخ . والمقاعد التى انتزعت من الأحزاب العمالية تدل على تغير أصوات المواطنين الغاضبة التى قررت معاقبة نظام الحكم القائم ، خاصة وان ناخبى حزب داشن يتكون معظمهم من المجتمع العمالى التقليدى .

وبانضمام حزب يادين الى الائتلاف الملتف حول مناحم بيجين فى اكتوبر عام ١٩٧٧ سمح للحكومة الجديدة بأن تتمتع بأغلبية برلمانية معقولة ، وان توجه سياستها فى اتجاه لا يميل الى الحزبية كما ساد الاعتقاد عند تشكيل هذه الحكومة فى المرة الأولى حينما طرح بيجين الثقة على حكومته فى الكنيست يوم ٢٠ يونيو من نفس العام .

الا ان صورة المسرح السياسى الاسرائيلى لن تكتمل ما لم تشر الى وجود نظرية نشيطة لبعض الأحزاب الصغيرة بل ولبعض الجماعات الصغيرة التى تكاثرت على مر الأعوام فى طرقات السياسة المكتظة . ان اصطباغ الحياة السياسية بطابع شخصى والعداوات التى لا تنتهى بين الأحزاب ، والخلافات من أجل ترهات لغوية ربما ورثت عن روح المجادلة التى يتسم بها التلمود — كل هذا أوجد شقاقات وولد جماعات صغيرة عديدة تجمعت حول رجل أو فكرة او طموح .. وغالبا حول ضغينة ما .

وليس ظهور فلاتو شارون بالأمر الذى يبعث على الدهشة فهذا الشاب الذى يناهز الخمسين من عمره ، ذو البنية الممشوقة ، والترف الصارخ الذى جاء الى اسرائيل عام ١٩٧٣ ليستثمر أمواله فيها — اموال لم يتحقق كسبها فى كل مرة بالطريقة المشروعة سواء فى فرنسا أو فى الشركات الدولية العديدة — هذا الشاب ربما ينظر اليه رجل الشارع على انه روبنسون كروزو « يهودى آخر » . ومع ذلك فلم يضايقه ابدا أن هذا الرجل الذى خالف القوانين الحالية ، استخف بالسلطات الفرنسية التى كانت تطالب بطرده فى الوقت الذى اطلقت فيه سراح أبو داوود الارهابى الفلسطينى أحد المتهمين فى عملية الاعتداء التى وقعت أثناء

الالعاب الاولمبية . وكان فلاتو يتمتع بقدر كاف من الاصوات بحيث يمكنه ان يرشح معه على نفس قائمته الانتخابية نائبين آخرين . الا انه فاز وحده بمقعد لانه تقدم « بمفرده » الى الكنيست . وخلال هـذه الفترة عكف شارون على دراسة اللغة العبرية حتى يمكنه ان يعبر من فوق منبره عن افكار طال انتظارها . الا انه كان ينبغى أن يمتثل أمام القضـاء خاصة وانه اتهم بشراء أصواته .

أما سولانيت الونى الابن العاق لحزب العمل ، الذى يراس حركة هذا الحزب من أجل الحقوق المدنية ، وعدو الدين اللدود فى الدولة ، فقـد ناضل فى اصرار وتصميم من أجل الزواج المدنى فى بلد تخضع فيه الاحوال المدنية لاحكام الدين ، كما ناضل من أجل حقوق المرأة ومحاولاته الدائبة لمداواة عيوب البيروقراطية جعلتـه عنوانا غير رسمى لمكتب مطالب المواطن اليهودى .

وأخيرا لا يمكن أن نغفل قوى اليسار ، وهى بالطبع تشكل أقلية سواء من حزب شيلى أو حزب راكاج الشيوعى الموالى لموسكو وستالين . ويضم حزب شيلى أنصـــار الحوار مع الفلسطينيين بل ومع منظمة التحرير الفلسطينية . ويجمع هذا الحزب الشيوعى ناخبيه بصفة رئيسية من بين السكان المغرب . ويعبر هؤلاء السكان بوساطته عن معارضتهم الوطنية دون ادنى اكتراث بالماركسية النظرية لزعماء الحزب . أما حزب راكاج فقد تحمى النائب شارلى بيتون « الفهد الاسود » وهو مجرم سابق ومناضل من أجل قضية الشرقيين ، ورفع من فوق منبر الكنيست أصوات المنسيين فى المجتمع الاسرائيلى دون أية تعقيدات .

ولا يمكن أن تتصور الحياة العامة فى اسرائيل بلا أى اثر لهذه الاحزاب الصغيرة التى يمثل كل واحد منها مصالح واهتمامات محـددة ، والتى تعطى مذاقا لهذا المطبخ السياسى الذى لولاها لاصبح مملا للغاية .

فمع صـعود كتلة ليكود البطىء والصلب فى نفس الوقت فى مواجهة حزب العمل أصبحت عملية الاستقطاب الثنائى امر بالغ الاهمية .

على أعتاب الحكم

عندما ضم حزب حيروت قوته الى قوة الحزب الحر داخل حزب جحال فى الانتخابات التشريعية عام ١٩٦٥ ، وعلى الرغم من حصولها على ٢٦ مقعدا الا انهما لم يحصلا معا على عدد المقاعد التى حصل عليها كل منهما على حدة فى عام ١٩٦١ .

وفى عام ١٩٦٩ ظل عدد مقاعدهما فى الكنيست السابع ٢٦ مقعدا . وغداة الانتخابات عام ١٩٧٣ فقط وبعد « الهزة الأرضية » التى احدثتها حرب الغفران قفزت كتلة ليكود (التى خلفت حزب جحال) قفزتها الاولى وحصلت على ٣٩ مقعدا . وما لم يفلح فى تحقيقه الزواج بين الحزبين حققه النشاط المحموم الذى قام به الجنرال اريل شارون : حينما احرز تقدما حاسما لنهضة هذه القوة التى رشحت نفسها لكى تحل محل السلطة الاشتراكية القائمة .

ان حزب حيروت (حزب مناحم بيجين الحر) الذى تولد عن جماعة الايرجون ذات النشاط السرى ، هو حزب من المناضلين الذين زادتهم نيران حرب الاستقلال صلابة ، وقوت شكيمتهم تجربة المعارضة فى مواجهة حزب مابای عدوهم الأزلى . ولم يحجم أعضاؤه مدفوعين بدوافع ــ قوية ــ عن استخدام اللهجة الهجومية لهجة العنف (على سبيل المثال فى المظاهرات ضد مشروع التعويضات الالمانية) ، وازدادوا تماسكا لشعورهم بالانتماء الى « أسرة » هامشية ومغلقة . وحزب حيروت حزب وطنى لا يعيش الحاضر بقدر ما يعيش ماضى الأساطير والصراعات . وان كان اعتقاده الشديد فى ملكيته ، « لضفتى نهر الأردن » قد أصبح شعارا الا أنه أبعده عن الحقائق . ولولا شخصية بيجين القوية لذاب هذا الحزب بصورة تدريجية ولولا ايضا مساندة جنرالات مثل شارون وعزرا وايزمان .

أما الحزب الحر فيميل الى الوسط بنزعته وبحكم الضرورة ايضا ، ويضم المستوطنين القدامى فى فلسطين الذين سبقوا الرواد الاشتراكيين ، واصحاب الشركات الاسرائيلية الصغيرة والمتوسطة ، والطبقات المتوسطة وهو من انصار عدالة التوزيع بين القطاع العام والقطاع الخاص ، ومن

اهدافه مكافحة المشكلات البيروقراطية التى تقف حجر عثرة فى سبيل المبادرة الفردية فى الاقتصاد ؛ كما يدعو الى نظام اقتصادى حر معقول ومخطط . وتعد السياسة الاقتصادية التى ينتهجها سيحا ابرليخ وزير المالية وزعيم الحزب الحر ، صورة لذلك . وأعضاء هذا الحزب اكثر اعتدالا بلا شك من شركائهم فى حزب حيروت فى مجال السياسة الخارجية، واقل تشددا عنهم فيما يتعلق بالعرب والأراضى . وهم يشاركون رفاقهم فى حزب بيجين حقوقهم من قيام دولة فلسطين (دولة عرفات كما تقول كتلة ليكود) لو تنازلت اسرائيل عن أراضى اليهودية والسامرة . الا ان الجنرالين أيريل شارون وعزرا وايزمان سيعملان على توثيق عرى هذا التحالف المزعزع بين الحزبين ليجعلا منه فى النهاية اداة للتناوب .

أن اريل شارون بطل حملة افريقيا الذى نجح فى نقل قواته على الجانب الاخر من قناة السويس ، على الرغم من مخاوف هيئة الأركان ، كان يتطلع دائما الى مستقبل وطنى وقد سنحت له الفرصة عندما انضم الى الحزب الحر ، وعندما قاد الحزبين الى الوحدة بما يشبه القوة لخوفهما الشديد من ميوله . ولخيبة امله فى تحفظاتهما ، وعقليتهما المتجمدة بعض الشىء بسبب معارك المعارضة القديمة ، الاغلال التى تعيق عمل اجهزتها والعراقيل الاجتماعية التى تقف حجر عثرة فى سبيل المسيرة نحو الحكم ، قاطع ايريل شارون كتلة ليكود .. وعمل فى حكومة رابين لفترة من الوقت كمستشار عسكرى ، كما تقرب من ايجال يادين ، وادار بنجاح اعمال مزرعته الشاسعة بصحراء النقب كلما سنح له الوقت . ثم قرر تأسيس حزب بزعامته حزب شلوم سيون « سلام لصهيون » وعليه حصل على مقعدين فى البرلمان ومنصب وزير الزراعة .. بل كانت له ايضا اليد العليا فى المستوطنات وهو احد روادها الأوفياء . أن شارون هو موارت آخر فى انتظار نابليون آخر .

أما عزرا وايزمان قائد السلاح الجوى الاسرائيلى ، فقد قاد طياريه الى الانتصار المفاجىء عام ١٩٦٧ . وهو مزهو بنفسه ، وعلى قدر كبير من البلاغة ، لا يكترث بالايديولوجيات والعمل هو دينه الوحيد . وقد تأثر هو الآخر بسحر كتلة ليكود ، فقادته رحلته الى الانضمام اليه ثم الانسحاب منه ، فى انتظار الفرصة المنشودة التى اتيحت له عشية الانتخابات عام ١٩٧٧ ، أن اسلوبه القتالى الذى يحتفظ به حتى فى الحياة المدنية جعله يغير من

عادات كتلة ليكود وعادات بيجين . فتولى تنظيم الحملة الانتخابية لهـذه الكتلة بمعاونة مجموعة لامعة من رجال الدعاية ، وحرم على مناحم بيجين التدخل فيها اللهم الا بالظهور أمام الناخبين وبالقاء الخطب المسموح له بها. واطاعة زعيم كتلة ليكود الذى أعيته الازمات القلبية ، اذ رأى فيه الخليفة الذى طالما كان يحلم بأن يخلفه فى زعامة الحزب على مدار ثلاثين عاما من الكفاح فما هو هدف عزرا وايزمان اذن ؟ هو تجنيب بيجين الوقوع فى الشراك التى ينصبها له حزب العمل عند اقتراب الانتخابات لحملة عـلى رفع القناع البرلمانى الانيق الذى يحترم العادات ويحترم الروح الجماعية الطيبة ، فيكشف من ثم عن وجهه الحقيقى المتمرد ، ذلك الوجه الذى لم ينس شيئا من الماضى ، ولم يتعلم اى جـديد . وقام عزرا وايزمان بشن حرب دعائية حقيقية على يوسى ساريد ذلك الصحفى الشـاعر والنائب ذو العقل المفكر اللامع فى حزب العمل ؛ فأثار نزالهما ـ الهادىء فى بعض الاحيان ، والحاد أحيانا أخرى ـ غبطة الصحف الاسرائيلية والجمهور . ويبدو انه تواطأ خفيا كان يجمعهما فى هذه الحرب ـ حـرب البيانات ، والمعارك المكتوبة ، والدعائيـة ـ تلك الثورة العارمة ـ ثورة الشـباب من الرجال على أنظمتهم الحزبية الكهلة بعض الشىء . وهكذا دخلت اسرائيل معهما ـ سـواء متجهة الى الأسـوأ أو الى الأحسن فى زمـرة الانظمة الديمقراطية التى ينتهجها الغرب .

وفى مسـاء يوم الانتخابات قال عزرا وايزمان هـذه الكلمة عندما رآه المشاهدون يعلق فى ابتهاج قائمته الانتخابية : « لا داعى للخوف أن الموقف فى البلاد سيكون افضل من اى وقت مضى . وان أملى لكبير فى أن يتحقق السلام الذى طالما كان منشودا » .

وقبل أن يعين عزرا وايزمان وزيرا للدفاع ببضعة أيام حرص على أن يذكر كلمة « السلام » أمام المسـلايين من المواطنين الذين اذهلهم التغيير الشديد الذى طرأ على مجتمعهم . ولم يكن عزرا يجهل انه بناء على هذا السلام الذى ظل لفترة طويلة حلما بعيد المنال ـ بناء على هذا السـلام بصفة خاصة ـ سيكون الحكم على هذه المجموعة التى قادها الى النصر .

انه يعرف الآن أن دخول المجموعة ـ التى تمسك حاليا بزمام الحكم ـ أن دخولها لتاريخ مرتهن بالسلام الى حد كبير . فتراها ستكون حادثا عابرا فرضته أهواء القدر ، أم سـتنجح فى التغلب على الصـعاب وفى تغيير مسارها ؟ ليس غريبا فى تاريخ اسرائيل الزاخر بالمآسى أن يأتى السـلام من حيث لا يتوقع .

الثورة بالانتخابات

اسرائيل هى دولة على اهبة الحـرب
ومجتمـع مثقف فى نفس الوقت ، انهـا
اسبرطة واثينا فى آن واحـد .

سول بيلو

« فى عودة القدس »

طفولة زعيم

ان مناحم بيجين صغير وضئيل الحجم ، يضع نظارة مستديرة وسميكة على عينيه وجهه غائر الوجنتين وهو يبدو كرجل من رجال التلمود اكثر مما يعطى انطباعا بأنه رجل أعلنت السلطات البريطانية عن مكافأة لمن يأتى براسه (وقدرها عشرة آلاف جنيه بريطانى) ويصف أرثور كوستلر دهشته حينما وجد نفسه غداة حرب الاستقلال أمام زعيم « الارجون » فقد سبق أن التقى به فى المرة الاولى فى السر . ودار الحديث بينهما فى سرية تامة . ويروى بيجين فى ابتهاج كيف حاول الصحفى الكاتب الانجليزى أن يشعل سيجارتين ليرى وجهه وكتب كوستلر يقول «من نبرة صوته التى كانت تصلنى فى الظلام من الجانب الاخر من المنضدة ، تصورته ضخما ، وناسكا منعصبا . والحقيقة انه كان صغيرا ، ضئيلا ، رهيفا ، ضعيف النظر ووجهه هادىء وجاد مثل وجه المعلم . الا ان الأصوات تبدو خداعة فى الظلام مثل السجائر والطعام . وهو أرعن ، ولكنه واثق من نفسه مثل الأشخاص الذين انتهى بهم الامر الى التكيف مع خجلهم . وهو يتحدث بقليل من التعصب وبقدر كبير من الروية والتانى الى حد اننا نجسد فى دعايته قدرا من البلاغة والعنف . وهو يشبه الرجل المثقف فى ملبسه الذى يفتقر الى الهندام ، ملبس لا يتناسب معه . كما يشبهه فى تأثره السحرى المحدود . ولقد تفاهمنا عندئذ اكثر مما تفاهمنا عندما قام بتمثيل دور الرجل الخفى » .

ثم كتب كوستلر فيما بعد هذه العبارة عن مناحم بيجين ، وهى صورة واضحة لجيل من الرواد فى اسرائيل : « انهم قوم لم تكن لهم طفولة لان الظروف فرضت عليهم فى وقت مبكر مسئوليات تتجاوز اعمارهم . انهم اطفال معجزة لم يلعبوا ابدا لعبة البلى » .

ومع ذلك فقد كان لبيجين طفولة مدللة . تلك الطفولة المغمورة بالرعاية التى تنعم بها الاسر اليهودية النقليدية . وقد ولد بيجين فى مدينة بريست ليتوفسك ببولندا عام ١٩١٣ فى شهر الاحزان عند اليهود لانه يخلد ذكرى تدمير معبد القدس . ومن هنا كان اسم مناحم ومعناه السلوى . وهو ثالث طفل لأسرة متواضعة للغاية . وقد كانت قلة امكانياتها سببا فى

الا يواصل الشاب مناحم بيجين دراساته الثانوية فى احدى المدارس الثانوية كما كانت تتمنى اسرته ، وانما فى احدى المدارس العامة .

وفيها درس الآداب القـــديمة ، وتعلم اللغة اللاتينية التى يميل الى استخدامها من آن لآخر ودرس بصفة خاصة فى فترات الراحة بين الحصص الدراسية معاداة السامية المتأصلة فى الشعب البولندى . وقد روى فيما بعد انه تحمل على مضض فى يوم من الايام مزاح وسخرية رفاقه فى الفصل الذين راحوا يتهكمون عليه لرفضه مخالفة قدسية يوم السبت باجتياز امتحان اللغة اللاتينية الذى تحدد فى ذلك اليوم المقدس .

ونلاحظ فيما بعد فى أعوام المقاومة نفس هذا الالتزام الشديد بالتقاليد ورغم علمنا بأن نضالنا كان مباحا حتى فى يوم السبت نظرا لضرورته ، الا اننا كنا نفضل فى هذا اليوم الا نستخدم اسلحتنا الأمر الذى يعلمه الانجليز وكانوا يحترمون يوم السبت اليهودى أكثر من احترامهم ليوم الأحد .

ولم تكن المدرسة الثانوية ببولندا وحدها الفرصة التى تعرف فيهـا بيجين على معاداة الشعب للسامية . فقد كانت بولندا دولة مفتتة تقاسمتها طويلا كل من بروسيا ، وروسيا والنمسا . وسرعان ما وطأت ارضها الجيوش الالمانية ثم السوفيتية ، ومن ثم نمت فيها بذور الروح الوطنيـة كما نمت بها فى نفس الوقت كراهية الأجنبى ، وبالتالى كراهية اليهود .. ولم يكن من السهل على مناحم الشاب أن يندمج فى « الذات » الوطنيـة التى كان أول ضحاياها . الا اننا يمكن ان نتصور ان هذا المزيج الثقافى الذى كان غارقا فيها لم يلبث أن ايقظ فيه التطلع الى شخصية وطنية مستقلة تلك الشخصية التى سرعان ما وجدها بين صفوف « البيتار » وهى منظمة للشباب فى الحركة الصهيونية التعديلية .

وحينما توجه بيجين الى مدينة وارسو فى سن الثامن عشرة من عمره لدراسة القانون كان « بيتاريا » لامعا من اتباع فلادمير زيف جابوتنسكى . ولما كان يتمتع فعلا بموهبة خطابية ، فقد أخذ يتجول بين الطوائف اليهودية لينقل لها كلمة السيد . وخلال احد مؤتمراته التى كان يجوب فيها بين هذه الطوائف تعرف على فتاة شابة هادئة رزينة . « وفى الحال قرر أن تكون زوجته » وتم الزواج بعد ذلك ببضعة اشهر فى وجود جابوتنسكى الذى اهتم بتكريم الرجل الذى أصبح خلال هذه الفترة ممثلا لمنظمة البيتار فى بولندا . ولم تفارقه اليزا بعد ذلك .

ولنعد ادراجنا الى طفولة بيجين . فأبوه زيف دوف بيجين هو سكرتير الطائفة اليهودية بمدينة بريست ليتوفسك . ووجهه وجه يهودى متعالى ترك اثره على رئيس الوزراء المقبل . وثم رواية تصف شخصيته باختصار أنه فى يوم من الأيام فاجأ زيف جنديين بولنديين يضايقان أحد الحاخامات فرفع عصاه وانهال بها ضربا على ممثلى القانون . فقبض عليه ، وضرب ، ثم عاد الى منزله غارقا فى دمائه الا انه كان سعيدا . وعندما دخل الألمان مدينة بريست ليتوفسك لأول مرة قبل تسليمها للسوفيت فى اطار معاهدة ريبنتروف مولوتوف توجه زيف دوف بيجين الى « القيادة الألمانية » يطلب قائمة بأسماء اليهود الذين تم القبض عليهم والتصريح له بزيارتهم . وتسهيلا لمسعاه قدم وثيقة تشهد بأنه عمل كمترجم للجيش الالمانى ابان الحرب العالمية الأولى .

الا أن الالمان عادوا مرة ثانية الى مدينة بريست ليتوفسك وكانت عودتهم عودة مشئومة . اذ كان أبو مناحم وأمه وأخوه من أول ضحايا الالمان وروى بيجين هذا الحادث بعد ذلك ببضعة أعوام قائلا : لقد سار أبى — كما علمت فيما بعد — الى الموت بين أيدى النازى وهو يردد شعائر الدين اليهودى ، والنشيد الوطنى العبرى .

وكان مناحم بيجين نفسه فى ذلك الوقت فى مدينة لتوانيا حيث فر فى عام ١٩٤٠ عند دخول قوات النازى مدينة بريست ليتوفسك . وتم القبض عليه فى فيلنو لنشاطه الصهيونى : « ان اللجنة الخاصة الاستشارية للشئون الداخلية التابعة لمجلس الشعب تعتبر مناحم بيجين عنصرا خطيرا على المجتمع لذا قررت سجنه فى معسكر للأعمال الشاقة لمدة ثمانية أعوام .

واطلق سراحه بعد ذلك بفترة وجيزة من سجن لوشيسكى فقرر بيجين التطوع فى الجيش البولندى تحت قيادة الجنرال اندرز الذى اتجه من الاتحاد السوفيتى الى أرض فلسطين عن طريق ايران والعراق ، وقد استخدم بعض اليهود البولنديين وسيلة الانتقال هذه للذهاب الى أرض الميعاد ولكن سرعان ما كانوا يتركون الجيش بمجرد وصولهم الى المكان المقصود .

أما بيجين نفسه فلم يترك الجيش (لان ترك الجيش امر مخالف للشرف فى مفهومه) وانما عمل فيه لمدة عام ونصف الى أن اطلق سراحه فى أواخر عام ١٩٤٣ . وبعدها مباشرة عين قائدا لقوات « الايرجون » . حينئذ بدأت أمجد فترات حياته ، الفترة التى مارس فيها نشاطه فى السر .

ومنظمة « ايرجون تزفلى ليومى » (وهى منظمة عسكرية وطنية) تاسست عام ١٩٣٧ (وتميزت عن الهاجانا بأساليب عملها التى حكمت عليها بممارسة نشاطها سرا) وباتجاهاتها السياسية . فبينما كانت الهاجانا نوعا من ميليشيا الطبقة العاملة ، استقطبت منظمة الايرجون اولئك الذين تصدوا للصهيونية العمالية .

واخفت منظمة الايرجون مطابعها ومخابئها فى تل ابيب حيث عاش مناحم بيجين نفسه « فى سرية تامة متخفيا تحت اسم مستعار واحية » . وكتب بيجين يقول أن السلطات العسكرية الانجليزية وجهاز المخابرات اعتقدوا ان لدينا آلاف الجنود المحترفين الذين لم يكن لهم من عمل سوى « الارهاب » المناهض لبريطانيا . ولم نحاول أن نبدد شكوكهم هذه ! فالى ان جلت القوات الانجليزية عن فلسطين لم يكن لدى المنظمة سوى بضعة عشرات من الاعضاء يعملون بصفة دائمة فى النضال السرى (وكان عددهم أحيانا يقل عن عشرين ولكنه لم يزد ابدا عن اربعين اما الأعضاء الآخرون — وعددهم بالمئات واصبح فيما بعد بالآلاف — فقد استمروا يؤدون اعمالهم العادية ، الى جانب بقائهم تحت تصرف المنظمة كلما دعتهم للعمل بها . انهم جيش شعبى حقيقى .

وفى يوم ٩ ابريل ١٩٤٨ ، وبعد سلسلة من الاعمال الرائعة فى جميع ارجاء البلاد ، قام مقاتلو منظمة الايرجون — بمساعدة اعضاء جماعة شترن — بحادثة فظيعة ودامية . فذبحوا ما يزيد على ٢٥٠ رجلا وامراة وطفلا فى قرية دير ياسين على مسافة غير بعيدة من القدس .

فما هى ظروف هذه الحادثة ؟ وكيف وقع هذا العمل المروع ؟ لم تنته حتى الآن وبعد ثلاثين عاما المجادلات الدائرة حول هذه الواقعة المؤلمة فى مسيرة الصهيونية الطويلة نحو السيادة . ولا تزال الدعاية العربية تشير الى حادثة دير ياسين لذكر « فظائع اليهود » وكالعادة كان رد اليهود بانه من الخطأ التحدث عن هذه الواقعة على انها مذبحة مقصودة ضد المدنيين . وهى فى رايهم أولا عملية حربية ، تم اخطار السكان بها مسبقا حيث دعوا للاحتماء بالمرتفعات .

وكانت النتيجة المباشرة لمسالة دير ياسين اساسا هى اثارة رعب حقيقى بين العرب الفلسطينيين فى فلسطين الذين اخذوا طريق الهجرة بأعداد كبيرة حيث بدأوا يقتنعون بأن اعمالا من هذا النمط سوف تأخذ فى التزايد .

وعندما اصبح مناحم بيجين رئيسا لوزراء اسرائيل طلب احد الصحفيين الامريكيين من الياهو اليسار صديقه الحميم ـ ورئيس مكتبه الحالى ان يعطيه صورة سياسية عن رئيس الحكومة الجديدة . فكان الياهو اليسار : « اقرأ كتابات زيف جابوتنسكى وسوف تجد كل شيء فيها » .

ولا يمكن للمرء ان يفهم شيئا عن شخصية بيجين وأفكاره ، وقراراته وفلسفته السياسية ما لم يرجع الى فلاديميرزيف جابوتنسكى ملهمه وابى الصهيونية التعديلية .

فمن هو جابوتنسكى ؟ قلما اثار حاكم صهيونى مشاعر فياضة كتلك التى اثارها جابوتنسكى بواقع الاخلاص المطلق وشبه الثقافى من جهة ، وكراهية عمياء من جهة أخرى . فبعد ان استنكرية « المؤسسة الصهيونية » ، مات جابوتنسكى فى نيويورك عام ١٩٤٠ ، واعرب فى وصيته عن رغبته فى نقل رفاته الى فلسطين بعد قيام الدولة اليهودية . ولم تتحقق هذه الامنية الا مع مجيء ليفى اشكول بعد قيام دولة اسرائيل بما يزيد على خمسة عشر عام .

ففى ١٩٥٦ ، سأل جوزيف سيشتمان ـ الذى كتب سيرة حياة جابوتنسكى ـ بن جوريون عن سبب عدم نقل رفاة زعيم الصهيونية التعديلية الى فلسطين . فأجاب بن جوريون قائلا : « ان رفاة هرتزل والبارون اوموند روتشيلد هى وحدها التى ينبغى اعادة دفنها فى اسرائيل . وعدا ذلك فاسرائيل ليست فى حاجة الى موتى وانما فى حاجة الى يهود احياء .

ولد جابوتنسكى فى مدينة اوديسا وهو ينتمى مثل هرتزل وعلى خلاف بيجين الى اسرة يهودية بورجوازية اندمجت فى المجتمع . وقد عرف فى مدينته فى سن الخامسة والعشرين بأنه كاتب مقالات لامع ، وملم بالادب الروسى وشاعر موهوب . وحصل جابوتنسكى على دراسته فى ايطاليا الحرة فى اواخر القرن الماضى حيث احتك بكبار مفكرى النهضة .

وتنبه جابوتنسكى الى المسألة اليهودية . كان مفاجئا وعنيفا ايضا . فقد كان لمذابح عامى ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ التى أقيمت فى روسيا ضد اليهود اثر بالغ فى نفسه . وقد اكتشف مثل هرتزل الذى تعرف عليه فى المؤتمر الصهيونى السادس ، وتأثر تأثرا شديدا ـ انه يهودى من خلال الشعارات المقيتة التى رفعتها المظاهرات المعادية للسامية .

. وفى عام ١٩١٧ وفى أوج الحرب العالمية أسس جابوتنسكى « الفيلق اليهودى » الذى شارك فى المعارك العسكرية بفلسطين مشاركة رمزية للغاية ومع ذلك أحدث دويا هائلا فى الدوائر الصهيونية . وقد كتب بيجين فيما بعد يقول : « ان أصول منظمة الايرجون ترجع الى الفيلق اليهودى الذى كونه جابوتنسكى وترومبلدور وابان ابان الحرب العالمية الأولى فالبيتار هى الفداء الذى نفذت منه منظمة الايرجون .

وفى شهر يناير عام ١٩١٣ قدم جابوتنسكى استقالته للسلطة التنفيذية الصهيونية لاعتراضه على سياسة قادتها فى تلك الفترة ولا سيما سياسة حاييم وايزمان « سياسة الاستسلام الاعمى » . فالمبادىء التى يدافع عنها والتى أصبحت فيما بعد مبادىء الصهيونية التعديلية مبادىء متشددة اذ تطالب بأن تقام دولة يهودية باغلبية فى كل الاراضى الفلسطينية بقوة القتال . والا تقام بغير هذه الوسيلة (وأصبح هذا الشعار الذى تركه جابوتنسكى شعار منظمة الايرجون فيما بعد) .

وقد أوجز جابوتنسكى برنامج الصهيونية التعديلية كما يلى : « ان برنامجها ليس معقدا . فهدف الصهيونية هو إقامة دولة يهودية . أراضيها : ضفتا نهر الأردن . ونظامها اقامة عدد كبير من المستوطنات . وحل المشكلة المالية : عقد قرض وطنى . وهذه المبادىء الاربعة لا يمكن تطبيقها دون موافقة دولية . ومن هنا كان شعار الساعة : القيام بحملة سياسية جديدة وصبغ الشباب اليهودى فى أرض اسرائيل وفى الشتات بصبغة عسكرية .

وسرعان ما انفصلت الصهيونية التعديلية عن المؤتمر الصهيونى ليؤسس فرعا مستقلا خاصا بها . والخلافات بينهما هنا ليست خلافات نظرية فحسب ، وانما هى ايضا خلافات فلسفية ، واخلاقية ونفسية : وينقل لنا والتر لاكور فى كتابه المذهل عن « تاريخ الصهيونية » هذه الاقوال التى ادلى بها جابوتنسكى فى جلسة سرية : « أن الصهيونية التعديلية ليست حزبا سياسيا أو ايديولوجية من الايديولوجيات بقدر ما هى « جنس نفس » . وعقلية فطرية محدودة لا يمكن نقلها وتوجد لديهم بالفطرة . ومن ثم فان مهمة الحركة هى البحث عن قوم من « جنسها » وتنظيمهم ، وليس العمل على تبديد نشاطها فى كسب جهود من الصهاينة ، جمهور مختلف فى عقليته .

وامتدت هـذه الحـركة التى نادى بهـا فلاديمير زيف جابوتنسكى ـ ،لاسيما منظمة شباب « البيتار » ـ الى اوروبا وبصفة خاصة فى بولندا والى فلسطين حيث اصبح لها اتباع كثيرون .

فما مدى مسئولية قائد الصهيونية عن تطور الافكار التى قام بنشرها هل يمكن اعتباره مسئولا عن بعض الانحرافات اليمينية التى لم يعصم منها أعضاء هذه الحركة ؟ ان السؤال لايزال بلا جواب . ولكن مما لا شك فيه أن ايديولوجية حركة « البيتار » ايديولوجية عسكرية للغاية : ارتداء زى موحد ، وتعاليم شبه عسكرية ، واقامة استعراضات رسـمية ، والتزام شديد بالنظام ويقول نشيد المنظمة الذى حرره جابوتنسكى :

« بالـدم والعـرق

سينهض جيل جديد .

فخور ، كريم ، قوى » .

ويغرس فى هذا الجيل تقديس « الهادار » ومعنى هذا اللفظ جمال الجسد ، والاحترام والكرامة ، والاستقامة ، والنزاهة ، وحسن الادراك ، والهدوء ، والشرف ، والمهابة .. كما يتعلم هـذا الجيل اهمية فضـائل الرجولة العدوانية وهى الصفات التى افتقر اليها الشعب اليهودى (رواية بعنوان « شمشون » لجابوتنسكى) .

ترى هل يعد جابوتنسكى رجلا فاشيا ؟ لقد كتب يقول : « انى على العكس من ذلك تماما . فأنا أكره بغريزتى جميع اشكال الدول البوليسية . لاننى أشك تماما فى قيمة النظام والقوة والعقاب الى آخر قولك وحتى الاقتصاد المخطط » .

ومع ذلك يبدو أن حركة « البيتار » قد تأثرت ـ بصفة جزئية على اية حـال ـ بالحـركات الاسـتبداوية فى العشرينات والثلاثينات فالخطب والشـعارات والايديواوجية والقيـم التربوية هى الخطب والشـعارات والايديولوجية والقيم التربوية التى ينادى بها « نظام الفروسية اليهودية المتمركزة على حصون النهضة الوطنية لحمايتها » .

وقد كتب والتر لاكور يقول ايضا : « ان الحركة التعديلية قد ادركت قبل غيرها من الحركات الصهيونية الاخرى بعض النقاط الأساسية وبصورة أوضح ، ربما لانها لم تكن على نفس المستوى من الاكتمال ، وهذه النقاط هى : انه لا يمكن أن تقوم اية دولة يهودية بدون توافر اغلبية يهودية ، وانه

لا يوجد اى حل سياسى آخر الا بقيام دولة يهودية وذلك بسبب معارضة العرب للهجرة والاستيطان اليهودى .

وهذا هو « أساس » ايديولوجية مناحم بيجين ، والارضية التى شب عليها والقرارات التى قراها والمستندات التى كان يرجع اليها . والغذاء الذى أمد به خطبه . ان أول ما يهر هذا التلميذ الشاب الذى يميل بطبيعته الى الأسلوب العاطفى الوجدانى هو ما سمى « بالتوحيد » فحركة البيتار « تدعو فى الواقع الى « الصهيونية النفية » التى تخلصت من المصطلحات ذات النزعة الاشتراكية ، مصطلحات هاشوير هانزاير » (حركة الشباب الصهيونى الماركسى التى اختلط بها لفترة من الزمن) ، كما تدعو الى الوطنية الخالصة التى لا تتمثل فى مجتمع من الصراعات أو فى اقتصاد طبقى . انما دولة تتمثل فى الدولة .

والذى يهر هذا التلميذ الشاب ايضا هو وجه هذا « السيد » المهيب وحماسه وحيويته .

أما عن العلاقات بين جابوتنسكى وبيجين فلا نعرف عنها الا القليل ترى هل كان جابوتنسكى يعتبره خليفته كما يعتقد البعض ؟ هذا أمر محتمل ومع ذلك وقع بين الرجلين « اشتباك » لا ينسى أثناء المؤتمر العالمى الثالث الذى عقده « البيتار » فى وارسو عام ١٩٣٨ . حيث اقترح السيد الكبير الموافقة على قرار بما يلى : « انى أقدم ساعدى للدفاع عن وطنى ولااقدمها الا للدفاع عنه » . وحينئذ اعتلى بيجين المنصة وتحدث عن طبيعة « الراى العام الدولى » التى لا قيمة لها ، وعدم اكتراث العالم الا بلغة واحدة وهى لغة القوة وختم بيجين كلمته باقتراح قرار معدل : « انى أقدم ساعدى للدفاع عن وطنى وللاستيطان فى بلادى » .

واخيرا تمت الموافقة على قرار بيجين . فجرح جابوتنسكى فى الصميم ، واخذ الكلمة ليقول « اذا كنت يا بيجين لا تؤمن بالضمير العالمى ، فليس عليك الا أن تلقى بنفسك فى مياه البحر » . ورغم ذلك فهناك اختلاف بين الرجلين . صحيح أن كليهما حر ، ووطنى ويدعو الى صهيونيـــة متطرفة وكلبهما رومانسى ، وعاطفى ويتمتع بموهبة خطابية كبيرة . الا ان احدهما ابن موظف بسيط شب فى أسرة يهودية فقيرة ؛ وفى دولة بولندية شـديدة العداء للسامية اما الآخر فرجل بورجوازى مقاتل ، تهود متأخرا .

ويرسم حاييم وايزمان لنا صورة لجابوتنسكى يتعذر التعرف فيهـا على خليفته : « جابوتنسكى رجل صهيونى متحمس ، ولم يكن يهوديا

على الاطلاق فى مسلكه او فى اسلوب حياته او فى علاقاته مع الناس . فقد ولد فى مدينة اوديسا ، الا ان الحياة داخل المجتمع اليهودى لم تترك اى اثر عليه وعندما توثقت العلاقة بينى وبينه بعد ذلك ببضعة اعوام ، كنت الاحظ ـ كلما راقبته عن قرب ـ ما يؤكد لى فيما يبدو هذا الازدواج . فقد كان يميل الى القبح ، ولكنه كان جذابا فى نفس الوقت ، فكان يتحدث بصورة تثير الاعجاب ، كما كان كريما ، وحرا على استعداد دائما لمعاونة الصديق عند الضائقة . الا ان كل هذه المزايا كان يحجمها طابع مسرحى يميل الى الادوار البطولية الى حد كبير .

وهو اشبه فى تطرفه بفارس يعجز الكلام عن وصفه . ولم يكن يهوديا على الاطلاق . ونجد نفس الرأى لدى بن جوريون الذى قال : « كانت لدى جابوتنسكى حرية فكرية مطلقة . ولم يكن هناك اى شبه بينه وبين يهود الشتات ، كما لم يكن يشعر بأى ضيق عند وجود اى شخص غير يهودى ».

ان جابوتنسكى يهودى متحرر ، ابن اوروبا القوميات أما بيجين فهو يهودى تقليدى . انه رجل شاهد الخيانة الأوروبية التى لن ينساها .

فترة عصيبة

لم يكن بيجين وهو فى سن الثالثة والستين بالطبع حديث العهد فى ساحة السياسة الاسرائيلية . وتوجد صورته بقاعة اللوحات « فى متحف جريفين بين صور الرواد العظام الذين ساهموا فى ميلاد الدولة اليهودية . وقد سمح اسحاق رابين لنفسه فى فترة من الفترات التى كان من المستبعد فيها توقع طفرات الناخبين أن يصف زعيم المعارضة السابق بأنه « أثر من الاثريات » .

فى الحقيقة من ذا الذى كان يتوقع هذه « العودة » المتألقة ؟ ومن ذا الذى كان يتصور فى لحظة من اللحظات أن يعود هذا الرجل المخضرم المتمرس فى السياسة الى الظهور فى يوم من الايام ؟ وانه « سيكتشف » ؟ فقد أعتقد انه مستهلك ، لأنه اشتغل كثيرا ، وشوهد كثيرا .

فمنذ ١٥ مايو عام ١٩٤٨ تاريخ ميلاد الدولة اليهودية وحتى ١٧ مايو ١٩٧٧ شهدت اسرائيل ثمانية انتخابات تشريعية . وفى جميع هذه الانتخابات كنا نجد نفس الرجل مناحم بيجين على راس المعارضة . وفى خلال التسعة وعشرين عاما هذه تعاقبت ثلاثة أجيال على راس حزب « ماباى » التاريخى وحزب العمل . بينما ظل مناحم بيجين فى المعارضة ولم يتغير . فهو الذى كان يقود جماعته دائما الى الفشل ، ورغم ذلك لم يتأثر .

وهناك رواية يهودية قديمة عادت الى الظهور أبان انتخابات مايو عام ١٩٧٧ تقول : كان رجل يسير فى الشارع وهو يصيح : « بيجين فى الحكم ، بيجين فى الحكم . فالتقى به أحد المارة وسأله :

ـ ما الذى يجعلك تصيح هكذا ؟

ـ انا أؤدى واجبى واصيح ثمانى ساعات يوميا منذ تسعة وعشرين عاما « بيجين فى الحكم » .

ـ وكم تتقاضى نظير ذلك ؟

ـ الف ليرة شهريا .

ـ الف ليرة فقط ؟ فكيف تعمل بهذا الاجر الزهيد ؟

ـ نعم هو أجر زهيد . ولكنه عمل مضمون لمدى الحياة .

الا ان الظروف لم تلبث أن اطاحت بحزب الأغلبية . ففى عام ١٩٥٩ ، وغداة مسألة لاثون (وزير الدفاع فى حكومة بن جوريون الذى « تستر » على تصرفات اجهزة المخابرات الاسرائيلية الخطيرة التى دبرت انفجارا بالسفارة الامريكية فى القاهرة لدفع واشنطن الى مقاطعة ناصر) .

بينما كان يجرى تشكيل حزب « ماباى » ، توقع البعض فى هذه المرة انتصار بنجين الأمر الذى لم يحدث . فثمة « خطأ ما » استغله خصومه على نطاق واسع ربما كلفه بضعة الآف من الأصوات . ففى أثناء عملية الانتخابية راى المسئول عن تنظيم هذه الحملة لتسهيل انتقالات بيجين ـ ان تتقدم على رأس سيارات الحزب دراجات بخارية لتشق الطريق امامها ـ وبالتدريج انضمت بضعةدراجات للموكب فأخذ تحرك بيجين صورة استعراض أميل الى الفاشية ، وكانت صورة افزعت الجمهور .

غداة حرب الغفران اتهمت حكومة جولدا مائير بالاهمال وقلة البصيرة وتعرضت لحملة من الانتقادات اكتنفها أحيانا سيل من السباب . فأخذ المتظاهرون يصيحون : « لابد من التغيير » . وهتف باستقالتها موتى اشكينازى وهو قائد شاب لاحدى وحدات الجيش بسيناء كان قد شهد زحف القوات المصرية على قناة السويس ، وامضى الأيام الأربعة الاولى من الحرب فى مخبأ تحت الأرض مع رجاله ، وقد غل غليل فى قلبه .

وعندئذ كان الحكم فى متناول يد بيجين . ولكنه لم يدن حتى منه والحقيقة أن هذا الرجل كان رجلا « خاسرا » على الدوام ومستديما فى المعارضة وعلى أية حال فهذه هى الصورة التى تركها لدى جزء من الرأى العام الاسرائيلى .

والاغرب من ذلك ، ان النكسات المتتالية التى توالت على حزب حيروت ثم حزب ليكود منذ عام ١٩٤٨ لم تؤثر باى حال من الأحوال على مركز بيجين داخل الحزب . فهو زعيم بلا نزاع ولا منازع . ولا يوجد من ينازعه مكان الصدارة . كما لا يوجد نيار يشك فعلا فى الخط الذى وضعه بيجين بنفسه وحده على راس الحزب . أن بيجين هو حيروت ، كما أن الديجولية هى ديجول .

وبالطبع فقد حدثت بعض الاصطدامات ، ولكنها لم تكن شديدة ولم تستمر بحيث تضعف من سيطرة الزعيم الكبير . والرجال الذين تصدوا له لم يحاربوه داخل الحزب . وانما شدوا رحالهم وخرجوا من الحزب مثل صموئيل تامير وكان محاميا ناجحا ، وصديقا حميما لبيجين لفترة طويلة من الزمن . كما نظر اليه على اعتبار انه خليفته قبل أن يترك الحزب فى عام ١٩٥٦ ويذهب لتأسيس حزب « الوسط الحر » الذى لم يطل أمده وبعدها وجد تامير فى مكان الصدارة فى حزب « واشن » ثم عين وزيرا للعدل عندما قررت حركة البروفسور يادين فى أواخر شهر اكتوبر عام ١٩٧٧ الانضمام الى الائتلاف الحاكم .

وهناك من شدوا رحالهم أيضا مثل اكيفاتوف وهو نائب فى حزب حيروت ساءه ما أسماه بالعادات الديكتاتورية للسيد فوصفه قائلا بأنه « جامد ومغرور الى حد جعل عددا كبيرا من أعضاء كتلة ليكود يخشون مواجهته » . وانضم توف أيضا الى حزب داشن الذى يلتقط الجميع .

ويروى أرييه دولزين مرشح كتلة ليكود لرئاسة المنظمة الصهيونية العالمية (وينتمى الى الجناح الحر) أنه جاء فى يوم من الأيام ليلتقى بيجين ليبحث معه مسألة مثار جدل فى صحبة ايليمليخ ريمالت فكتب يقول لزميله : « لتوقف هذا الاجتماع على الفور ـ لاننى أشعر أنه بدأ يقنعنى » .

واذا كان مناحم بيجين قد احتفظ بسيطرته على الحزب رغم الهزائم التى سجلها فى الحملات الانتخابية العديدة ، فلان هذا الفشل لا يرجع الى شخصه بقدر ما يرجع الى الظروف السياسية .

وكان يتعين ان ينتظر قرابة ثلاثين عاما حتى تحصل كتلة ليكود على « صبغة الشرعية التى رفض منحها اياها . ويقال أن شعار بن جوريون طوال مدة حكمه كان « لا حزب حيروت ولا حزب ماكى » وهو شعار لم يجد عنه ذلك أن الحاكم العمالى العجوز كان ينشد قيام ائتلاف وطنى من « جميع الاحزاب » ولكنه كان يستبعد منه أولا ودائما اليمين والشيوعيين الذين حرمهم من الحكم . واصدر عليهم حكما بالحرمان السياسى . فكانت احزابا محرمة .

الا انه من المستحيل أن تفهم شيئا من التطور السياسى الذى حدث فى كتلة ليكود ولن تفهم بالتالى شيئا من قيمة ثورة السابع من شهر مايو ما لم

نتذكر العلاقات التى قامت بين بن جوريون وبيجين . فقد كان الأسـد العجوز يكن كراهية شديده لزعيم حزب حيروت .

ولن نذكر بالتفصيل تاريخ العـلاقات بين الهاجانا (جيش الدفاع اليهودى) والايرجون (حركة المقاومة المتطرفة) . فنحن نعرف اليوم واذا عدنا بذاكرتنا الى الوراء ، ان المقاومة اليهودية ما كان يمكنها بلا شك ان تطرد الانجليز خـارج فلسطين وتؤسس الدولة اليهودية ما لم يكن هناك عمل مشترك بين الهاجانا والايرجون ، يتمثل فى دفاع سـلبى من جانب ، ورد فعال من الجانب الاخر . الدرع والسيف . « الهافلاجا » (اى الاعتدال) كما نادى زعماء « اليشـوف » الكبار ، والحـرب بلا رحمة كما دعت « الايرجـون » .

الا انه لا يمكننا ان نغفل الصراع الذى كان يمزق هاتين الحركتين فى تلك الفترة (اذا استبعدنا فترة الوحدة القصيرة بينهما)وقد سعى بن‌جوريون الى الجمع بين العمل الدبلوماسى ومحاربة المحتل . فلم يكن يتحمل وجود جماعة من المتطرفين خارجين عن طوعه .

وفى عام ١٩٤٤ عرض بن جوريون برنامجا من اربع نقاط على مؤتمر الهسندروت . ولاقت النقطة الاخيرة فيـه اعتراضات ، الا انه تم الموافقة عليها فى النهـاية ، « ومفادها اننا سوف نتعاون مع السلطات البريطانيـة حيثما اتجهت فى سبيل القضاء على الارهاب . وانه لمن الجنون والانتحـار رفض قبول مساعدتها فى جميع المجالات حيث تكون لنا معها مصالح مشتركة بحجة عدالة شكوانا من نظام الحكم الراهن فى البلاد فى بعض المجالات » .

وبوضوح دعا زعيم حزب « الماباى » الى الكشـف عن « ارهـابى » الايرجون وتسليمهم للانجليز. الامر الذى اتبع فى‌حالات عديدة غداة عمليات اغتيالات دامية للغاية . وقد بقيت هذه الفترة السوداء من فترات المقاومة اليهودية مخلدة فى التاريخ باسم « الموسم » (موسم المطاردة) . وفيها تم تسليم بعض اعضاء الارجـون الى اجهـزة الأمن البريطانيـة التى قامت بتعذيبهم والزج بهم فى بعض الاحيان فى سجون افريقيا .

وكان يمكن أن يتمثل رد فعل بيجين زعيم الايرجون فى الشعور بالحنق والانتقام او المزايدة . ولكنه استطاع أن يتغلب على غرائزه لرغبته قبل كل شىء فى أن يتجنب « محاربة اليهود » بكل ما أوتى من قوة وحتى النهاية . ولا شك أن قراره هذا هو احد القرارات الهامة التى سيخلدها التاريخ .

وهو المبدأ الذي لن يتخلى عنه بيجين حتى أثناء مأساة « التالينا » الشهيرة . وكانت الدولة اليهودية قد نشأت لتوها . ولم يعد «للايرجون زفاى ليومى » وجود كقوة عسكرية مستقلة ولكن المفروض أن هذه الحركة انضمت الى جيش الدفاع اليهودى الجديد . والتالينا هو الاسم الذى يوقع به فلاديمتر جابوتنسكى كتاباته . ولكنه بصفة خاصة اسم احدى سفن الايرجون التى امتلأت بالأسلحة (٥٠٠ بندقية و ٢٥٠ مدفعا رشاشا تم شراؤها من فرنسا) وكانت تنقل ٨٠٠ مهاجرا . وكان من المقرر أن ترسو السفينة فى كفار فيتكين . وقررت الايرجون انزال اسلحتها دون أن تطيع تعليمات الحكومة . وتم توقيع اتفاق بين بيجين ومبعوثين من دافيد بن جوريون رئيس الحكومة المؤقتة (الذى لم يلتق أبدا ببيجين خلال أعوام المقاومة) . ولاتزال بنود هذا الاتفاق حتى اليوم موضع جدل لا ينتهى ولا يمكن لأحد أن يهتدى فيه الى نتيجة . فكانت محنة عصيبة على أية حال . وهى أول وأفجع محنة أيضا شهدتها الدولة اليهودية الناشئة .

ودعا بن جوريون حكومته للاجتماع قبل أن يوجه انذارا أخيرا لزعيم الايرجون . وفيه قال لأعضاء حكومته : « ان الأمر غاية فى الاهمية . اذ لا يمكن أن تكون هناك دولتان . كما لا يمكن ان يكون هناك جيشان . ولن نسمح لبيجين أن يفعل ما يشاء . وعلينا أن نقرر ما اذا كنا سنعطيه الحكم ، ام اذا كنا سنأمره بوقف نشاطه المستقل . واذا لم يذعن فسنطلق النيران » .

ونحن نعرف باقى الرواية . فبناء على امر من بن جوريون اصدر ايجال الون رئيس « البالماخ » ــ (احدى وحدات الجيش) ــ امرا الى رجاله باطلاق النيران . فأشتعلت النيران فى السفينة بعد أن أطلقت عليها أربع قذائف . وتم اخلاؤها من الجرحى وكان بيجين آخر رجل غادر السفينة المشتعلة .

وقال الأسد العجوز فيما بعد أن مسألة التالينا من اشد القرارات المؤسفة التى لم يسبق له أن اتخذ مثلها فى حياته . ومع ذلك اضاف يقول : « انني اذا اضطررت الى اتخاذ مثل هذا القرار مرة اخرى فسأفعل » .

ترى هل بيجين يفكر حقا فى ثورة مسلحة كما اشار بعد ذلك ؟ الامر المؤكد انه كان يدرك أن هذه الحادثة هى أول تحد وجهه لحكومة اسرائيل المؤقتة الهزيلة وكان من المفروض الا يلين .

وايا كان راينا فى هذه الحادثة فقد ارسى بن جـــوريون ــ باراقة دم يهودى على ضفاف فيتكين ــ بصفة نهائيـــة اسس الدولة اليهودية ومنحها قوام وجودها وعمودها الفقرى : وهو مصلحة الدولة .

وهنا ايضا برهن مناحم بيجين على قدرة غريبة على ضبط النفس واكد لرفاقه اليمين الذى اقسمه : « اننا لن نوجه اسلحتنا ابدا الى اشقائنا » . وفى مساء نفس هذا اليوم تحدث الى الاذاعة وتخلل خطابه صوت نحيبه . وفى كتاب « ثورة اسرائيل » كتب مناحم بيجين فيما بعد يقول : ســخر ابطال عظام كثيرون من « سرعة انفعالى » عندما جلسوا يســتمعون الى خطابى . فليسخروا . فهناك دموع يجدر بالمرء ان يفخر بها والا بحمر خجلا منها . الدموع لا تنهمر عادة من العيون . ولكنها احيانا تنبعث من القلب مثل الدم « واضاف بيجين يقول : فلم تقع حروب اخوية كان يمكن ان تقضى على الدولة اليهودية قبل مولدها . وعلى الرغم من ذلك لم تقع حـرب اهليـــة » .

وناضل مناحم بيجين فى الظل من اجل احياء شعبه ، ولم يسع لمجد او سلطان . وقال البعض بشىء من السخرية « ان الارجسون كانت هيئة امدادات للوكالة اليهودية » وغداة اعلان الدولة اليهودية وضـع مناحم بيجين حركته تحت تصرف الحكومة الاسرائيلية ولم يعد يعمل فى الخفاء . ولشدة تمسكه بالحق ترك لغيره مهمة جنى ثمار النضال المشترك . وحذا بذلك حذو غاريبا لدى (احدى الشخصيات التاريخية التى كان يعجب بها الى جانب هرتزل وجابوتنسكى) هذا الرجل الجمهورى الذى تكيف مع الملكية املا فى قيام الوحدة الايطالية .

ولم يشعر بن جوريون بيجين باى ارتياح بل والاكثر من ذلك انه ظل يكن لزعيم المعارضة الجديد شعورا بالازدراء الشديد وكثيرا ما كان يتجاهله ويتجنب ذكر اسمه . واذا ما اضطر الى توجيه الكلمة اليه فى الكنيست « البرلمان الاسرائيلى » فكان ينادبه بالنائب الذى يجلس الى جانب دكتور بوحنان بادر « او » هذا الشخص .

اما بيجين فقلما هاجم ذلك الرجل ، الذى ربما يكن له شبه اعجـاب خفى ، هجوما مباشرا وشخصيا . فقد حارب سياسته مرغما بكل ما اوتى من بلاغة فى الاسلوب .

وعندما اقترحت حكومة بن جوريون التعويضات الالمانيـــة ، وذلك الاتفاق الذى ابرمه بن ناحوم جولدمان المستشـــار او يناور ، ثارت ثائرة

بيجين . ولا شك أن المسألة أصابت الوتر الحساس فكتب يقول فى كتاب « ثورة اسرائيل » . اننا لن ننسى لسلامة مستقبلنا وربما لسلامة مستقبل البشرية ما حدث فى قلب أوروبا المتحضرة فى هذا القرن الذى تحققت فيه الحضارة الالية . « وثار ونظم مظاهرات أمام البرلمان ، واعد حملة وادلى بخطب عديدة . وبلغ فى عنفه أمام البرلمان الحد الذى اوى الى ايقافه عن العمل لمدة ثلاثة أشهر » .

غير أن شخصية بن جوريون كانت على الرغم من كل هذا تثير اعجابه الى حد ما . ففى شهر يونيو عام ١٩٦٧ أغلق ناصر مضيق تيران وسحب أوثانت قواته . وباتت اسرائيل مهددة بالاختناق وبدأت نذر الحرب تظهر فى أفق الشرق الأوسط . وتوجه زعيم المعارضة لزيارة الزعيم العجوز بعد ان ثبتت براءته وانسحب الى مستعمرته بسدى بوكر وطلب منه العودة الى الحياة العـــامة .

ولم يعد ذلك الرسول المسلح « الى الحياة العامة وانما ليفى اشكول ــ ذلك الفلاح ذو اللهجة الفظة ــ هو الذى تولى حكومة حرب الأيام الستة واتخذ هذا الرجل الهزيل (الذى لا تزال اسرائيل بأسرها تذكر خطابه المؤثر فى الاذاعة عشية ٥ يونيو حيث تلعثم واضطرب فى الكلام اذ كان يثير العطف) قرارا لم يتخذ مثله من قبل قام فيه بتشكيل حكومة وطنية ودعا لأول مرة اعداء حزب « ماباى » النازبين للاشتراك فى الحكومة ، مثل بيجين وعزرا وايزمان اللذين أصبحا وزيربن فيها .

وهكذا اصطبغ اليمين « بالصبغة الشرعية » ، وتولى الحكم اخيرا . وخرج من عزلته السياسية فى نفس الوقت الذى صعد فيه الحزب .

وغداة الحرب ابقت جولدا مائير ــ خليفة ليفى اشكول ــ على الوحـدة الوطنية حتى عام ١٩٧٠ عندما استقال بيجين واصدقاؤه حين قـــررت الحكومة الاسرائيلية الموافقة على الخطوط العريضـــة « لمشروع روجـرز » الذى يقضى باعادة الأراضى المحتلة وتفتيت ما يعتبره اليمين الاسرائيلى حتى الآن « اسرائيل التاريخية » .

ومرة أخرى عادت كتلة ليكود الى المعارضـــة الا أنها اصبحت قوة معترفا بها . فقد انضمت الى المجموعة الوطنية وبات فى وسعها التطلع الى السلطة . وتشهد على ذلك الأرقام فمن عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٧٠ بدأت تتغلغل تدريجيا وبصفة دائمة بين الناخبين . ففى الكنيست لم يعد بيجين

يفكر بهذه العقلية التى يفكر بها « الغريب » . فقد حـرص على تهذيب عباراته وان خانته هذه العبارات فى بعض الأحيان . وفى عام ١٩٧٤ أصبح اسحاق رابين رئيسا للوزراء . فصاح زعيم المعارضـــة من فوق منبره قائلا : لم نر منذ سفينة نوح عشا من الحمائم « مثل عش حكومة رابين . وارى من واجبى الوطنى ان اطيح بهذه الحكومة » .

واصبح بيجين منذ ذلك الحين رجلا آخر يتمتع بالشرعية ليس عليه اى غبار بارعا وعلى استعداد لخوض تجـــربة الحكم ، دون حاجة الى انتزاعـــه .

تعلم السلطة

بعد تسعة وعشرين عاما من معارضة كرسها مناحم بيجين لعبادة التشدد والمواقف المتعنتة ها هو ذا عليه أن يواجه الاختبار العصيب وهو اختبار الحكم .

وحتى ذلك الحين نجح حزب بيجين فى صعوده المتألق دون أن يقدم التنازلات التى عادة ما تسبق أو تتلو التحولات الهامة للأصوات . ولم يجد هذا الحزب فى ظل التسميات المختلفة التى اتخذها وفقا لرغبة هذه التجمعات (حيروت ، وجحال ، وليكود) عن مبادئه الكبرى .

وظل متمسكا بأهم هذه المبادىء ، ولم يغير موقفه بشأن « أحكامه الأساسية » .

ومنذ عام ١٩٧٠ تشير الأرقام الى أن اليمين اخذ يحقق تقدما مستمرا بين الناخبين (الأمر الذى يتعارض الى حد ما مع التحليلات القائلة بأن اقتراع ١٧ مايو كان « اقتراعا مزاجيا » فقد زحف على الوسط كما تعدى على ميادين حزب العمل التقليدية دون أن يغير رغم ذلك من فكرة . ولم تلعب ظاهرة « الاستنجاد بالوسط » على حد تعريف والتر ليمان ، تلك الظاهرة المعروفة لدى علماء السياسة أى دور فى هذا الصدد : فلم تتقارب كتلة ليكود من ناخبى الوسط وانما هم الذين انضموا اليها .

ولكن الحكم له منطق مختلف ، اذ تحكمه نظم مختلفة ، وضرورات اكثر اهمية من التأثيرات الانتخابية . والأمثلة السياسية على سياسات المهادنة عديدة ، وكثيرا ما ذكرت بشأن مناحم بيجين . أن جى مولييه الرجل الاشتراكى هو الذى أدى الى استعجال الحرب الجزائرية ، والجنرال ديجول هو الذى وضع حدا لها بتوقيع اتفاقيات ايفيان . وجون كيندى الحر هو الذى شن الحرب الفيتنامية ، وريتشارد نيكسون ذلك الرجل المناهض للشيوعية هو الذى وقع اتفاقيات باريس .

أن تولى بيجين مسئوليات الدولة ، وتحوله من الايديولوجية الى السياسة قد شفاه من داء الحصبة المثالية الذى يصيب المعارضة فى

طفولتها . ولكنه ما أن واجه حقائق الحكم ، حتى أسرع بتخفيف لهجته . وعلى أية حال هذا ما كان يهمس به بعض الصحفيين بقولهم ستشهدون وقوع بعض المفاجآت .

ولم تلبث أن وقعت المفاجآت فعلا . ولكنها لم تقع حيثما كانت منتظرة بالضبط فقد كشف هذا الرجل عن شخصية قوية الى جانب فكر رجل استراتيجي محنك . وبدا صبورا . وكلما كان يعي ظاهرة استئناس الناخبين أخذ يعد للامر عدته ، مستخدما القوة واللين على التوالي ، وبحسب خطواته ، ويعمل خطوة خطوة . وبعد ستة أشهر أرسى سياسته الاقتصادية تلك الثورة الاقتصادية التي قضت على ثلاثين عاما من النظام الاشتراكي الموجه ، فقام بتقويم الليرة ،والغى الرقابة على الصرف ، والغى التعريفات المجحفة التي فرضت على السفر . ولكنه بدأ أولا بتحديد أهدافه :

فكان هدفه الأول هو تشكيل حكومة جديدة : فقد حصل بيجين على أغلبية في الكنيست بانضمام الدينيين اليه من حزب ماتدال والمتشددين من حزب أجودات اسرائيل ــ الذين وعدهم بوعود سرعان ما وصفت بأنها وعود دينية ــ وهي أغلبية ضئيلة بالطبع (٦٣ مقعدا من ١٢٠) ولكنها متجانسة الى حد كبير اذ تسمح له بحرية التصرف وتوجيه سياسته . وهكذا وبعد أن اطمأن الى مساندته امكنه أن يرفع مزايدته مع الحركة الديمقراطية من أجل التغيير بزعامة ايجال يادين البروفسور الجنرال عالم الحفريات الذي جاء حديثا الى المسرح السياسي والذي يأمل بمقاعده الخمسة عشر في البرلمان أن يكون عمله مساعدة ، ولكنه وجد نفسه مستبعدا في بادىء الأمر . ثم اكتسبه بيجين الى صفه مرة أخرى بعد ستة أشهر بمقابل زهيد ، وبنحو لم يكن له فيه دور كبير .

وكان هدفه الثاني : اشعال النيران في حزب العمل واثارة الفرقة بين صفوفها . انها عملية دبان التي تمت بنجاح وكانت مقدمة لعمليات الفصالية أخرى تلتها .

فقد عين رئيس الوزراء هذا الجنرال الأعور بطل حرب الأيام الستة ــ الذي انتخب على قائمة حزب معراخ ــ في منصب وزير الخارجية . ووافق موشي دبان . فمنذ فترة طويلة وهو يشعر بعدم الارتياح بين اسحاق رابين الذي يتجاهله وايجال الون خصمه القديم الذي يكرهه كل الكراهية . كما أنه غير محبوب داخل حزبه حيث لم يتردد البعض في القاء

تبعات الأخطاء « التي سبقت حرب الغفران عليه . وظل واحدا من هـذه الشخصيات البارزة التي تتصدر القوائم الانتخابية ولكن لم يعد احـد يستشيره داخل حزبه .

وبدأ ديان ـ الذي كانت احدى قدميه داخل الحـزب والاخـرى خارجه ـ يبحث عن فرصة لمقاطعة هذا الحزب . فصرخ في شهر مارس عام ١٩٦٩ بقوله : « اننى اشعر بانني اقرب الى بيجين من بنحاس سابير في مجال السياسة الخارجية » . وفي اواخر عام ١٩٧٤ فاجأ الجميع حين وقع على اقتراح من كتلة ليكود يطالب باعلان الضفة الغربية ارضا محررة وكثيرا ما لوح باستقالته دون ان ينوى ذلك فعلا . واثارت خيانة ديان الذى « انزل » في ارض « العدو » بعض الاضطرابات في حـزب العمل . وقد وصف اسحاق بن اهارون السكرتير السابق للهستدروت هذا الأمر بانه (أوتو ستوب سياسي « بينما ذكر البعض في هذا الصدد كلمة اقل ارتباطا بالمصطلحات السياسية واضطر كل منهما الى التسليم بانهـا عملية ناجحة رغم انهما رفضا الأعتراف بذلك صراحة . فقد اكتشـف بيجين ثغرة وعرف كيف يستغلها . الأمر الذى حظى بالتصفيق سرا في الاروقة .

الا ان الامر لم يقتصر على ذلك فقد استمرت استراتيجية عمليـة « الاختطاف » في جميع الاتجاهات . فقد جند ابا ايبان وزير الخارجية السابق في حزب العمل لمهمة تفسيرية في الولايات المتحدة ـ ليؤكد ـ وهو يضع يده على قلبه ـ ان المراد هو حماية « الاتفـاق الوطني » وليس السياسية الحكومية البحتة ـ وبذلك اتضح الفارق . الا ان هذا المسعى قد أصاب الهدف المنشود تماما وهو اثارة البلبلة بين صفوف حزب العمل وجاءت الضربة القاضية بانضمام الحركة الديمقراطية من اجل التغيير الى الائتلاف فقد انضم حـزب يادين ، الذى كان يعتزم تغيير كل شيء واعرب عن تلك الأمنية أمام ناخبيه ، الى الحكومة خافض الراس وخضعنا لشروط بيجين . وكانت الحكومة الاسرائيلية قد شـكلت منذ خمسـة اشهر ، وفرضت اتجاهاتها الرئيسية (ولا سيما تورتها الاقتصادية) . ولم يبق أمام يادين وتامير واميت وكاتز سوى الانضمام الى هذا الاطار .

وكانت نتائج ذلك مؤلمة بالنسبة لحزب العمل . فقد وجـد نفسـه معزولا في المعارضة اذ احتفظ بيجين بعدد كبير من رجال السياسة الذين عينتهم حكومة رابين في الوزارات والادارات ولكن الى متى ؟

ان لينين هو الذى كتب يقول أن أى ثورة لا تقوم الا حين يطاح بادارة وبيروقراطية نظام الحكم السابق . وبيجين فى هذا المفهوم غير ثورى . أو انه ثورى شديد الصبر والتانى .

أما الهدف الثالث فقد تمثل فى اكتساب الرأى العام وفى هذا الميدان بذل بيجين قصارى جهده . ففى رأى رئيس الوزراء الجديد ان النظام الديمقراطى هو نظام السلطة . ففيه تعطى الأولوية للمؤسسات التى يراد تثبيتها فى مواجهة مفاوضات الأروقة . وجماعات الضغط التى كانت تتحكم فى كل الأمور فى عهد حكومة حزب العمل .

فهل يعنى ذلك ان نظام الحكم اصبح رئاسيا ؟ بكل تأكيد ـ فقد قال ناحوم جولدمان الذى لم يبد مرتاحا لهذه المسألة « ابا كان رأينا فى هذه الحكومة الا ان لها رئيسها » . وبدأ مجلس الوزراء ينعقد ويناقش ويتخذ القرارات دون ان نجد فى الصحف فى اليوم التالى ـ كما كان مألوفا ـ محضرا مفصلا للجلسات . ان السرية ـ ذلك العنصر الرئيسى فى . مسرحية الساطة « كانت مكفولة . الامر الذى لا يعنى أن بيجين ليس ثرثارا .

ان بيجين خطيبا بفطرته ومنذ نعومة اظافره . وهو بلا شك رجل السياسة الاسرائيلى الأول الذى جعل من الكلمة إداة للحكم (اكثر من سلفة بن جوريون الذى كان قليل الكلام) ففى رأيه أن الحكم يأتى بعد الكلمة . وهو بحركته المسرحية ، وميله الى التحليقات الوجدانية وبأسلوبه اللاذع اذا ما اقتضى الأمر يؤثر أو يثير استياءك ، ولكنه لا يمكن الا يثير انتباهك .

فبالكلمة نسج بيجين شيئا فشيئا رباطا مباشرا مع الشعب خلال الأيام الأولى من حكمه متجاوزا بذلك الاحزاب . نسجها بالكلمة وكذلك بمجموعة من الاشارات والتقاليد والاحتفالات التى استغلها ببراعة (وبصورة خطيرة فى بعض الأحيان) .

وفى كتابه « ثورة اسرائيل » أشار بيجين الى كلمة دزرائيلى رجل الدولة اليهودى الانجليزى فكتب يقول : « ان الشعوب تحكم اما بالقوة أو بالتقاليد » . وما ان كلف زعيم كتلة ليكود بتأليف الحكومة الاسرائيلية الجديدة حتى توجه الى حائط المبكى كى يستغرق فى التأمل والصلاة . ذلك المصدر الشرعى للحكم كما لو كان هذا المكان الرفيع المكانة فى التاريخ وفى الدين اليهودى يعطى قوة للحكم .

انراه ايمانا ؟ نعم ولا فى نفس الوقت . اذ ان الايمان والدين مرتبطان ارتباطا وثيقا فى راى بيجين حيث كتب يقول ايضا فى « ثورة اسرائيل » ان حائط المبكى كان بالنسبة لليهود ـ منذ بداوا يتعرضون للاذلال ـ محرابهم الذى يصلون فيه من اجل تحقيق امانيهم ولا ينبغى على الوقحاء ان يستنكروا هذا الايمان فطريق التاريخ حقيقة لا خيال . « وفى عشية روش هاشانا (ليلة راس السنة اليهودية) قال بيجين فى خطابه الذى تحدث فيه عن امانيه « انى انوب عن الفقراء والمؤمنين » . وقال خلال رحلته الى واشنطن « انه يعتبر نفسه اداة الاله » كما اعلن خلال زيارته الرسمية لبوخارست عن يهوديته التى يرفعها كالعلم ليرفرف فى كل ريح ، والتى يستخدمها كدرع واحد » .

أتراه رمزا وضعه بيجين فى خدمة دبلوماسيته ؟ أم انهـا براعة رجل سياسى يعرف كيف يحكم شعبا مولعا بالتقاليد ، حتى وان كان لا يتمسك بهذه التقاليد على الاطلاق ! كتب يوسف لابيد الصحفى فى صحيفة معاريف الذى رافق رئيس الوزراء فى تنقلاته فى رومانيا يقول : « فى هذه اللحظة المؤثرة فى معبد بوخارست من ليلة السبت ، وعندما بدأ كورال من الشباب نشيد « يرشاليم شل زاهاف » شوهدت الدموع تنساب على وجنتى بيجين واليهود يتهامسون « انه يبكى » بينما راحت النساء يبكين معه ، وفى هذه اللحظة المشهودة فقط أدركنا ان مناحم بيجين هو اكثر رؤساء الوزراء الذين حكموا اسرائيل ايمانا باليهودية .

ومن قرارات مناحم بيجين التى تثير الجدل ، قرار يجدر بنا أن نتأمله حيث انه يكشف عن طبيعة الرجل : « قبوم هاشواه » هو يوم الاحتفال بذكرى ضحايا المذبحة النازية : « أن يو » « ٩ آف » يوم معروف فى اسرائيل ولدى الطوائف اليهودية فى انحاء العالم بانه يوم دمرت فيه جحافل جيش تيتوس الرومانى معبد القدس ولحرص بيجين على أن يخلد ذكرى تعذيب يهود أوروبا اقترح الاحتفال بذكرى هذين اليومين فى يوم واحد ، ليربط التاريخ اليهودى المعاصر ويثبته فى تراثه القديم الذى يرجع الى الاف السنين .

أن بيجين هو بلا شك رجل الطقوس . وأى احتفال فى نظره يقسم بالقداسة ، راى لقاء يعتبر لقاء تاريخيا وكل نقاش له أهميته . « فلم يحدث أن تأثرت ابدا برجل مثلما تأثرت بجابوتنسكى « هذا ما قاله فى

ختام لقائه مع الرئيس كارتر كما صرح أمام الطائفة اليهودية فى بودابست قائلا : « اننى لم أتأثر ابدا متلما تأثرت عند اعلان استقلال اسرائيل » .

ان حب عبارات التفخيم هذا يمكن بسهولة ان يبدو فعالا ، فربما يميل بيجين الى الأسلوب الدرامى . ولا يمكن ان يعتبر ذلك من قبيل التمثيل ، حيث يبدو الرجل صادقا مخلصا فى مشاعره وفى مقالاته .

ان مناحم بيجين رجل طقوس ورجل مبادىء ، وهو ينتمى الى جيل الساسة الذين ظهروا فى بداية هذا القرن . هذا الجيل الذى لم يعلن بعد أفوله . فمع صعود رابين وبيريز وآلون الذئاب الصغار فى حزب العمل ، الذين تغلب عليهم الروح العملية ، والذين تخلصوا من الآثار المذهبية التى تركها كبار السن فى الحزب ــ ساد الاعتقاد فى فترة من الفترات فى اسرائيل بأن الايديولوجيات قد انتهت . ان المجتمع الاسرائيلى مثل المجتمعات الاخرى فى انحاء العالم قد خلق طبقة جديدة من التكنوقراطيين لا يتحدثون الا قليلا وينجزون بسرعة ولا يبالون بشىء . ويبدو أن عملية التطعيم قد فشلت بسبب السأم فقد لفظ الناخبون اسحاق رابين واستدعوا على رأسهم من يعارضه فى الرأى . فأحدهما من جيل الصابرا الجديد أما الاخر فيهودى (بالمفهوم التقليدى) واحدهما عملى ، والاخر ابن مخلص لنهج ونظرية ومدرسة فكرية . واحدهما من « الطليعة » ، والاخر ينتمى الى هذه الفئة من الساسة القدامى « الاباء » (الامر الذى يفسر ــ كما يقول بعض المحللين تصويت عدد كبير من الناخبين السفرديين الذين يميلون بقدر كبير ــ كما يقال ــ الى مفهوم الحاكم السياسى الابوى .

ان جيل الصابرا الذى طالما انتظر اللحظة التى يحكم فيها ، قد اثبت انه يعجز عن الامساك بزمام الدولة اذا لم يبحر بسفينة الحكم صوب هدف يراه على مدى النظر . فقد تولى اسحاق رابين الحكم فى وقت عصيب فى بلد كان لايزال مهتزا من جراء حرب الغفران ، ويسعى لالتقاط انفاسه مرة اخرى ، ويبحث عن رجل جديد ــ ولم لا « رجل القدر » .

لقد انتهت فترة حكم رابين الاعتراضية ويبدو ان التاريخ يضرب دائما ، موعدا آخر ولكن لا يتواعد ابدا مع نفس الرجل . ان انتصار بيجين هو ايضا فشل لاسرائيل ــ الصبار .

اسرائيل الجديدة

ان الذهاب الى مكان آخر يعد انها لهذا الجنس والفضيلة السرية الكبرى والرسالة السامية لهذا الشعب ...

أن أى عبور يعد بالنسبة لهم مثل العبور الشاق للصحراء فالمنازل الاكثر راحة وثباتا تعد بالنسبة لهم بمثابة خيمة فى الصحراء .

الأمر الذى تولد عنه عذاب لا مثيل له واقسى خصومات داخلية ثارت بين روحانية وسياسية .

شارل بيجى

« شبانبا »

من بن جوريون الى بيجين

قالوا أن هناك نقاطا مشتركة قليلة بين اسحاق رابين ومناحم بيجين . وفى الواقع ، فان اقل المراقبين علما بالعمليات الغريبة للسياسة الاسرائيلية يمكن أن يلاحظ أن كل شيء يباعد بينهما : فأحدهما قائد عسكرى سابق يحاول ادخال اساليب صارمة فى عالم السياسة ، ولا يقسم الآخر يمينا سوى بالديمقراطية ويهتم اقصى اهتمام بحقوق كل فرد . ان كل شيء يباعد بينهما : المظهر والثقافة والافكار السياسية والاسلوب . ان رابين هو الصابرا . لقد ولد فى البلاد ولذلك لم يكن يتسم بعيون يهود الشتات بيد انه لا يتحلى ايضا بصفاتهم . ويصل بيجين الى الحكم محاطا بالاساطير فهو رجل « ثورة اسرائيل » الذى ناضل حتى من قبل اقامة الدولة . وهو رجل حنكته التجارب ، ولعله ليس فى طليعة فريقه ولكنه يمثل من يمكن ان يطلق عليه لفظ « اليهودى الأب » ، وكأنه اشبه بجسد عطوف ينحصر اهتمامه الوحيد فى مصلحة العائلة . انه ــ على أفضل تقدير ــ يشبه بن جوريون وقد تخلص من المرارة او على اسوأ تقدير يشبه ديجول ولكن فى صورة يهودية . ولقد اخذ عن الأول حاسة الحدس والتكهن واحيانا لهجة التنبؤ وعن الثانى اخذ مجد تلك الأقليات التى عقدت العزم ذات يوم ، وهى صفر اليدين ولا يدفعها الا ايمانها وحده ــ على ان تحمل لواء الثورة .

على انه لم يؤت عناد الولد العاق الذى تميز به بن جوريون ولا الكبرياء التى انقضى زمنها والتى عرفت عن ديجول . بل انه متواضع لأقصى الحدود حتى ليبدى استعداده على عكس الاعتقاد السائد عنه بصفة عامة ــ الى الاصغاء طويلا لمعارضة . وعلى عكس ابا ايبان فانه يجيد الانصات الى الاخرين .. فهو يعتقد أن هذا هو أقل قدر من اللباقة التى يتعين عليه أن يبديها لمحدثه . ورغم أن تواضعه خليق بأن يوصف بالتواضع اليهودى الا انه لا يجعله يغفل قط عن الأهمية التاريخية للمهمة التى يضطلع بها ولا يتنافى تواضعه مع حماسه وطموحه من أجل شعبه : أو صموده الذى يسير على هديه الأمر الذى يتنافى بالنسبة لآخرين مع التسابق لجمع الثروات المادية أو اشباع رغبات الرفاهية البورجوازية . لقد كرس حياته كلها لتحقيق هدف كبير . فهو لا يريد السلطة لمجرد الرغبة فى توليها . ومازال المسكن

المتواضع ذو الحجرتين الذى يقطنه منذ ثلاثين عاما ، فى الطابق الأرضى من احدى العمارات القديمة فى قلب تل أبيب ـ مفتوحا لاستقبال الجميع . بعد ظهر يوم السبت كما جرت العادة قبل أن يتولى السلطة . وذلك لرغبته فى ان يكون باستمرار على اتصال مباشر بالشعب وعلى علم برغباته وآماله واحتياجاته .

ويقول بيجين : « لقد تربيت وانا طفل صغير على أن ارضى بالقليل فى حياتى أن حب الأسرة اليهودية وضرورة احترام كل انسان هما النبعان اللذان نهلت منهما فى بيت والدى » .

من هنا كان هذا الأدب الجم المبالغ فيه احيانا ـ الذى يبديه بيجين دائما تجاه خصومه السياسيين بل وتجاه أعدائه أيضا . ولكن اى أعداء قد يجيب بيجين على هذا السؤال متبعا اسلوب ديشيليو ـ الذى كثيرا ما يستشهد به ـ قائلا انه ليس له من اعداء سوى أعداء دولة اسرائيل .

وهو فى غمرة نشاطه اليومى يجعل شغله الشاغل فكرة واحدة ثابتة مؤداها انه مستودع ارادة الشعب والطموح القومى فهو يعتبر نفسه رسولا يضطلع برسالة من أجل خير شعبه وذلك ما يفسر تصريحه الذى يقول فيه عن نفسه أنه « اداة الخالق » ذلك ان نظرته للعالم هى أولا نظرة يهودية تقليدية فلا شىء يحدث فى الحياة الدنيا دون مشيئة الخالق وتنظيمه وتدبيره . وهكذا فان مهمته وقدره التاريخى نابضان أساسا من «ارادةالله» ان بيجين ـ حينما يتحدث يحتفظ فى ذهنه بأربعة آلاف عام من التاريخ اليهودى .

وهناك بعض النوادر التى تحدد ملامحه : من ذلك ان أحد زملائه البرلمانيين فى الكنيست ممن ظلوا لسنوات عديدة يجاورونه فى المجلس يقول : أبدا لم ار بيجين ـ حتى فى أشد الأيام قيظا ـ يحضر الجلسات العامة مرتديا قميصه فقط ولكنه يأتى دائما لابسا رباط عنق .

وذات يوم بعد أن صار رئيسا للوزراء ، اذا بزوجته اليزا تنبهه الى أنه لم يتناول افطاره بعد ... فأجاب عليها مشيرا الى حرسه الخاص بقوله : « هل اهتممت ياعزيزتى بمعرفة ما اذا كان هؤلاء قد تناولوا افطارهم أم لا . اليسوا اخوتى ؟ » .

فى شهر سبتمبر سنة ١٩٧٧ وبينما كان حلف العلاقات الاسرائيلية الأمريكية يحتل مركز الصدارة فى احداث الساعة ، سأل أحد صحفى

جريدة « معاريف » رئيس الوزراء عما اذا كان يمكنه الكشف عن مضمون رسالة بعث بها الى الرئيس كارتر . ويجيب بيجين بقوله : « ان أول تحذير يضعه دابى جبرشوم (هو استاذ فى القانون اليهودى ومشرع) هوانه لايمكن الزواج بامراتين اما التحذير الثانى فهو انه لا يجب الاطلاع على رسالة ليست موجهة اليك » .

ومن عادة بيجين ان يقول ــ حينما لا يتوصل بعد مناقشات طويلة مع خصومه السياسيين الى « طريقة تعايش » .. « فلنتفق على اننا غير متفقين ثم نتناقش بادب وصبر واحترام متبادل » . فى حين كان « النبى المسلح » بن جوريون ــ حينما كان يتضح له صعوبة الاتفاق مع خصومه او مع رفاق الطريق ــ يتخذ القرار بمفرده بطريقة مشابهة تماما لطريقة ديجول او يصفق الباب خلفه ويختفى فى كيبوتزه بسيدى بوكر الذى كان يعد بالنسبة له مثل قرية كولومبى لين وزحليز (مسقط راس ديجول) .

ولا يصدر مثل هذا التصرف عن بيجين وهى نقطة من نقاط الاختلاف بينه وبين بن جوريون بيد أن بيجين يعد ــ مثله فى ذلك مثل رئيس حكومة اسرائيل السابق ــ « مفتون بالصهيونية وقد كون نفسه ، مثل بن جوريون ــ فكرة معينة عن دولة اسرائيل وشعبها . وكان بن جوريون يقول « عم سيجولا » ، ذلك التعبير الذى يمكن ترجمته الى « شعب الصفوة » ولقد راى كل منهما انه ليس هناك ضرورة لان يكون المرء مجنونا حتى يصبح صهيونيا ولكن ذلك يساعد كثيرا . ويهتم بن جوريون بالمصلحة العامة وحدها ، أن الشعب يستكين حين لا يكون امامه مثل اعلى كبير ، ويجب النظر الى بعيد واعداد الامة لتحديد قواتها وروادها .

ونمة نظرة روحانية واحدة للامور تجمع بينهما رغم أنها بالنسبة لبن جوريون نظرة روحانية تلقائية على حين انها فى حالة بيجين نظرة دينية وتقليدية للهودية كما تجمع بين الرجلين نفس فلسفة العمل التى درج بن جوريون على تلخيصها بما يلى : « أن مستقبلنا لا يتوقف على ما يقوله غير اليهود بل على ما يضعه ــ اليهود انفسهم » ويرى كل منهما ــ كما يقول فاوست بطل جوته ــ « فى البداية كان هناك العمل ، حتى واذا كان بيجين يرى أن الكلمة هى صورة من صور العمل .

ولقد جعل كل من بن جوريون وبيجين من دراسة التوراة مسألة قومية وكان بن جوريون يقول : « انى اعتبر يوشوع هو بطل التوراة ، انه لم يكن مجرد قائد عسكرى بل كان المرشد لأنه توصل الى توحيد قبائل

اسرائيل . وربما يفضل بيجين موسى رجل التاريخ ابن الشعب الذى يمثل التواضع نفسه على يوشوع القائد العسكرى .

ان الخيارات السياسية ليست هى الشىء الوحيد الذى يختلف فيه دافيد بن جوريون عن مناحم بيجين لقد كان الأول عنيدا بقدر ما يتصف الثانى بالصبر ، وكانت ثورانه عنيفة وغضبة يستمر لفترة طويلة ويبدو اشبه بحيوان جريح .

وقال عنه ميشيل بارزوهار وهو افضل من كتبوا سيرته ان بن جوريون كان يعد فى اخر ايام حياته بمثابة « كهل سريع الغضب ، منتقم وحقود » وليس هناك شىء من ذلك لدى بيجين الذى يتسامح بسرعة لأن اليهودية تفرض عليه ذلك ، والذى لا يستطيع ان يضمر الحقد لأن عقيدته الأولى قبل حب ارض اسرائيل — هى حب الشعب .

« يجب تجديد معركتنا للعودة الى صهيون » . يعتقد بيجين فى الواقع ان الصهيونية لم تقل كلمتها الاخيرة مع ان ذلك يعد أمرا حيويا بالفعل اكثر من اى وقت مضى ، وحينما نرى تطور الوضع بالنسبة لليهود فى الاتحاد السوفيتى وفى بعض الدول العربية او دول اخرى فى امريكا اللاتينية وطوال ٢٦ عاما قضاها زعيما للمعارضة ، كان يختتم كلمته فى كل مرة يتحدث فيها الى اى منظمة الشباب اليهودى ، فى الشتات بنداء حماس هو : « لقد حان الوقت للعودة الى البيت » . وفى حديث طويل كان قد ادلى به منذ عدة سنوات للاذاعة الفرنسية ، قال ردا على سؤال خاص بالرسالة التى يرغب فى توجيهها الى الشباب اليهودى فى فرنسا : « اننى اعتقد انه يتعين على هؤلاء الشباب ان يعكفوا اولا على دراسة تاريخ ولغة شعبهم حتى يدركوا عظمة وبطولة اسرائيل ثم ، عليهم أن يفكروا ايضا فى العودة ليشاركوا فى اعادة بناء ارض اجدادهم والنهوض بها . أن بيت ابائهم ينتظرهم » .

ويعتقد مناحم بيجين انه ليس هناك عقيدة تفوق على الصهيونية بل وانها مازالت الايديولوجية الوحيدة والحركة الوحيدة التى لم تخن اهدافها « يتعين علينا ان نعود عودة حقيقية الى الصهيونية ، بعد عودتنا الى ارض صهيون » . أن ما يريده ليس هو صهيونية الخوف ، ولكن حركة التمجيد والحماس . وهو يدرك تماما أن الصهيونية قد اضطرت بموجهتها للحقائق — الى مراعاة الممكن بيد انه يعمل للعودة الى الحلم : فهو يريد أن يحل الأنبياء والصالحون محل الاداريين فهل اختفت صهيونية الرواد ؟ اذن

يتعين مساعدة كل هؤلاء الذين يرغبون فى احيائها امثال « شباب كتلة الايمان الرائعين » . ويعتقد بيجين مثل بن جوريون ــ ان الحركة الوطنية اليهودية لم تحقق حتى الان سوى هدف واحد من اهدافها هو ــ العمل على ان تكون هناك اغلبية يهودية فى اسرائيل . ويتبقى الان الهدف الاخر الذى لا يقل اهمية عن الهدف الاول وهو ان يقيم اغلبية اليهود على هذه الارض .

فهل يعد بيجين متشائما ؟ نعم حينما ينطلق ــ فى تأملاته مسترجعا احداث التاريخ فيتحدث عن هذا الجيل على اعتبار انه جيل الحروب والطرد والاضطهاد والبؤس والصعوبات والاحلام المجهضة « وحاوبان » اى ابادة ثلث الشعب اليهودى ولكن سرعان ما يعرض هذا التشاؤم قائلا « اننا اليوم فى بداية تحررنا » واذا كان بيجين يستخدم العبارة الآرامية « اتهالتا ديجيولا » فى حديثه عن هذا الموضوع ، فانه يفعل ذلك متعمدا ليوضح انه يلمح الى التحرير الذى بشر به انبياء اسرائيل وحلله فلاسفتها وانتظره الشعب طوال عشرين قرنا وليس الى اى تحرير عادى لا يستند الا على القوة الوحشية . ويقول بيجين فى هذا الشأن « أننى لم اقبل على الاطلاق المفهوم المشار اليه فى التوراة :

الحياة بالسيف اننا هنا بقوة الحق فانى اؤمن بقوة الحق وليس بحق القـــوة .

ويضيف قائلا : « لم يكن لنا دولة طوال ١٨٧٨ عام ، ولكن كان لنا دائما وطن . ولقد احببناه عن بعد وكنا نشعر بالحنين اليه . وصلينا لتكون أرضه خصبة دائما . ان الوطن هو البلد الذى ولدت فيه او ولد فيه اباؤك او اجدادك . ولقد كانت العبارة التى قالها يوسف اجنون الحائز على جائزة نوبل فى الادب بسيطة ولكن عميقة : « لقد ولدت فى احدى مدن الشتات بسبب كارثة تاريخية ــ هى هدم امبراطور روما للقدس . بيد اننى كنت اعتبر نفسى دائما فى اعمق اعماقى ، وكاننى ولدت بالفعل فى القدس .. وعلى أية حال فلقد ولدنا جميعا فى القدس » .

ويعتقد بيجين تماما ــ مثل الشاعر الاسرائيلى الاخر يودى تسفى جرينبرج الذى يتغنى بروح اسرائيل الممزقة فى نفس الوقت بتطلعها الى الوحدة . انه « سوف يأتى اليوم الذى تلتئم فيه كل المتمزقات التى احدثها تيتوس » .

اذن فهى صهيونية صافية ، دون خوف او لوم ، موجهة تماما نحو المستقبل دون ان تنفصل مع ذلك عن جذورها .. وهنا ايضا يكمن احد الاختلافات التى تفرق بين بيجين وبعض اسلافه . ترى ما هو هدف الصهيونية ؟ بالنسبة لمناحم بيجين تعد الاجابة واضحة : « عند مدخل متحف جابوتنسكى فى تل ابيب ، توجد هذه العبارة لماكس نوردو « ان امنية روحى هى رؤية شعب اسرائيل فى ارتيز اسرائيل . يحمل على التقدمية الحقيقية ويكون مثالا تحتذى به الامم وينشر بينها فكرة الاخوة » .

وفى حين نادى بعض المفكرين الصهيونيين — الذين يميلون اساسا الى اليسار — بالانفصال تماما عن الماضى التاريخى للشتات ، كان مناحم بيجين وأصدقاؤه يعتبرون أن الصهيونية لا يجب أن تقيس بمقياس الخسائر والارباح كل ما اكتسبه الشعب اليهودى فى تشتته ونفيه وحياته فى الاحياء المنعزلة (الجيتو) .

أن مفهوم بيجين عن اليهودية يعد مفهوما تاريخيا . أن تجاهل بعض (الصابرا) للتاريخ الحديث للشعب اليهودى يثير ثائرته : « أن ذلك نوع من التخلف » .

ويقول بيجين مرارا وتكرارا « يتعين على الشباب اليهودى فى الشتات دراسة اللغة العبرية بل والتحدث بها . كنت قد قمت منذ عدة سنوات مضت بزيارة لجامعة كاليفورنيا وطلبت من الطلبة اليهود دراسة اللغة العبرية والتحدث بها . وسألتنى احدى الطالبات : « ولكننا سوف نكون مختلفين »

« وما الضرر فى ان نصبح مختلفين ؟

— أن الجاليات اليهودية فى الولايات المتحدة الامريكية لا يضرها اليوم ان تكون مختلفة .

أن التطور التاريخى للولايات المتحدة يمضى فى اتجاه المثل الاعلى العنصرى . أن كل شخص هناك مختلف . لذلك يتعين على الشباب اليهودى أن يتكلم اللغة العبرية . وسيكون ذلك بالنسبة له جسرا عظيما سوف يسمح له فى يوم من الأيام بأن يلحق بنا على أرض اجدادنا .

« انظروا الى الدرس الجميل الذى يعطينا اياه الابطال اليهود فى روسيا : انهم يناضلون من اجل حقوق اليهود هناك انهم لا يطالبون باقامة مسرح باللغة العبرية ولكن بحق دراسة وتعلم اللغة العبرية والتوراة .

« أما فى الغرب ، فليس من الضرورى الكفاح للحصول على هذه الحقوق اننا نحتاج الى الارادة فقط . ويجب على الشعب اليهودى تحريك كل هذه الطاقات لصالح الشباب سواء كانوا فى الجامعات أو فى اى مكان آخر . وحينئذ يتم تأسيس الأخوة اليهودية الحقيقية . على اليهود حتى وان لم يصلوا بعد الى اسرائيل ـ ان يتكلموا اللغة العبرية فى بيوتهم وفى الشارع .

« اننا نعيش اليوم تحت لواء انتصار الحـــركة الوطنية اليهودية اى الصهيونية التى اعتقد اننا لا يمكن ان نجد لها نظيرا فى تاريخ حركات التحرير الاخرى ويتمثل تناقض جيلنا فى اننا نثير بانفسنا ـ فى هـذه الايام التى حققنا فيها الانجازات والنصر والرفعة ـ الشك والتساؤل عما اذا كانت الصهيونية على حقّ .

ولا يشكّ رئيس الوزراء أدنى شك فىّ عدالة قضيته . وهو يعتقد فقط أنه يتعين تكذيب هؤلاء الذين يرددون أن الصهيونية ليس لها رسالة تؤديها بالنسبة لنوعية الحياة . ومن المؤكد أن الاخلاقّ العامة قد تعرضت طوالّ هذه السنوات الأخيرة فىّ اسرائيل لنكســـة . ويعترف بيجين بذلك قائلا : « لقد انتشر نوع من العنف فىّ حياتنا الاجتماعية مؤخرا . ولقد اصـــبح البعض ذئابا وظهرت الرغبة فىّ الايذاء والهدم واللّم . واختفت بعض قواعد الأدب ولم يعد حب الانسان الذى يوصينا به قانون اسرائيلّ موجـــودا تقريبا . ولم يعد هناكّ اعتبار للمرأة أو احترام للشيوخّ . ويواصلّ بيجين حديثه قائلا :

(لقدّ مر زمن على هذا البلد لم يكن فيه أحدّ يغلقّ باب بيته . كانت الأبواب تظلّ مفتوحة) ولم يحدث على الاطلاقّ أن دخلّ أحد واستولى على مالا يملكه وكان الرجالّ يقفون صفا ليركبوا المواصلات ولم يكن أحد يحاول اللجوء الى الغش . ومازلت أتذكر الأيام التى كنا نفخر فيها نحن اليهود باننا مهذبون . وعند دخولّ احدى النساء كنا نقف لها ونعطيها مكاننا . لقد كانت المؤسسة اليهودية حينئذ جميلة وكبيرة . ومازالت فىّ الامكان . اليوم ايضا التصرف طبقا لهذه الاداب . ويجب أن يبدأ كلّ فرد باعطاء المثلّ على ذلك » .

ويعتقد مناحم بيجين أن الاسرائيلى يجب أن يستعيد صفات اليهودى التقليدى . أن يعاود الاتصال بأصول الثقافة اليهودية ، ودفع الشباب الى أن يدركوا أن اليهودية عظيمة نظرا لانهـــا احـــدى المكونات الاساسية للحضارة العالمية .. ان هذا الرجل الذى يملؤه الحنين الى الأصل يتجه

فى الوقت نفسه نحو المستقبل . ويدافع بيجين عن مواقف الشجاعة والأصالة دون أن يلفظ شيئا من اليهودية الأصلية وهويردد أحيانا بكبرياء هذه العبارة لشارل بيجى « يستطيع اليهودى أن يرجع فى تاريخه من جيل الى جيل ، ويستطيع أن يرجع الى قرون مضت ، وسيجد دائما شخصا يعرف القراءة بل وليس ذلك فقط ، ولكن القراءة اليهود ، وليس قراءة كتاب ولكن قراءة « الكتاب » .

وهذا يعنى قراءة لكلمة الله ... اما الكاثوليكى والفلاح والفرنسى اذا ما رجعوا الى اصلهم فانهم يصطدمون ايا كان الجانب الذى يرجعون اليه بعد الأب او بعد الأم مباشرة ، بجبهة مربعة من الاميين » .

الحديث الجديد :

أن يكون الرجل الذى يتولى حكومة اسرائيل منذ شهر يونيو ١٩٧٧ مختلفا تمام الاختلاف عن كل هؤلاء الذين تولوها منذ ثلاثين عاما ، ذلك يعد أمرا بديهيا تؤكده طبيعة العلاقات القائمة من الآن فصاعدا ، بين اسرائيل ويهود الشتات . ولقد كان هؤلاء يشعرون أحيانا بانهم يتحدثون لغة اخرى غير لغة الصابرا الذين كانوا يشعرون مع ذلك بانهم متضامنون معهم تماما . والواقع ان اليهودى لم يكن يتعرف على نفسه دائما فى المراة التى كان يقدمها له الشباب الاسرائيلى . لقد كانوا يبدون له بكل تأكيد خاليين من العقد والاوهام والاستفهامات حول النفس التى كان آباؤهم يعانون منها فى جو عدائى قائم على التميز ، ولكنهم مجردون أيضا من فضول الآباء المضطرب والمثمر . « على حد تعبير المأسوف عليه جورج فريدمان فى كتابه « هل هى نهاية الشعب اليهودى » ؟ . وكان الشباب الاسرائيلى نفسه يعرب عن نوع من الرفض ليؤكد يهوديته فى نفس الوقت الذى كان ينأى فيه نفسه عن الثقافة التقليدية وكان « الصابرا » ينظر الى يهود الشتات نظرة احتقار فى حين كان يعامل هذا الصابرا فى بعض أوساط اليهودية التقليدية فى انحاء العالم على أساس انه « أجنبى يتحدث اللغة العبرية » .

وكانت لغة الصابرا « انعكاسا لهذا التمزق .. وكانت تختلف عن اللغة التقليدية وبصفة خاصة عن اسلوب التوراة ان لغة الصابرا تستبعد كل العبارات التى ادخلها الحاخامات على لغة التداول اليومية ولا تستخدم الاوامر والعبارات الموجهة الى السماء مثل عبارة « ان شاء الله » . وتأنف من العبارات الآرامية التى كانت تستخدم فى عهد التلمود ولكنها استمرت

حتى الآن نتيجة للتيار التقليدى لليهودية وكانت لغة الصابرا تتسم بالعلمانية وعدم التقديس ولم تعد لغتهم العبرية هى لغة التقديس ولكن لغة الحديث اليومى والحوار العام .

وهذه هى الثورة الاولى التى حققها مناحم بيجين بمجرد توليه السلطة. لقد اكتشف الشعب لغة اخرى هى فى الواقع اللغة التى كان يتحدث بها اليهود طوال الوقت فى منفاهم . انها لغة التوراة والانبياء واساسا لغة التلمود وهى لغة مهذبة الى اقصى درجات التهذيب : تحترم الله والانسان كل الاحترام ، كما انها لغة غنية ينساب فيها اربعة آلاف عام من التاريخ اليهودى . وتتضمن عبارات الانبياء وامثال الحاخامات المراجع الدينية وآيات من التوراة وقصصا خرافية ، وامثال ، واقوال الحكماء . وهى لغة مرموزة وتلميحية وجدلية لا يستطيع فهمها تماما الا الذين تعمقوا فى دراسة الثقافة اليهودية التقليدية . وهذه هى اللغة المكونة من علامات مقدسة التى كرمها اعضاء هيئة التحكيم لمنح جائزة نوبل فى شخص شمويل يوسف اجنون سنة ١٩٦٦ .

وهى لا تعد مجرد لغة فقط ، ولكنها رؤية للعالم وادراك للحياة يأخذ الله فيها جانبا اخاذا فى كل لحظة : ان شاء الله لا سمح الله انها احد المشاكل التى سوف يحلها المسيح .. انها حوار مع السماء مع الاصول ، مع التاريخ . وعلى عكس اللغة العبرية ببعض افراد الصابرا ، فهى اللغة التى كان يتحدث بها الكبار واساتذة القانون وزارع الكروم راشى ، والطبيب معمونيد الذى يعرف العربية .

ويقول بيجين « على حد تعبير حكمائنا » .. ثم ينطق بكلمات ملتهبة او امثال من التوراة او عبارات من الواقع . ولا يلجأ بيجين الى لغة سلفه الا اذا لم تسعفه اللغة العبرية التقليدية فى التعبير عن فكرته . ويضيف حينئذ وكأنه يعتذر : « ... كما يقول ابناؤنا من الصابرا اليوم . وهو لا يطيق ، فى الواقع : أن يحتمل مثل هذا العدد من العبارات الانجليزية او الغربية المقدسة . لماذا يستخدم رابين كلمة اجنبية فى حديثه عن الحنين الذى يشعر به المجتمع الاسرائيلى تجاه سياسة هنرى كيسنجر » على حين كان بوسعه استخدام الكلمة العبرية المقابلة .

هل يعد ذلك وطنية متطرفة تصل الى حدود اللغة اليومية ؟ ربما يتعلق الامر اساسا بموقف عاشق للغة العبرية التى لا تعانى من مثل هذه الخيانات . ويدفع صائغ الكلمة حبه للغة العبرية الى حد اختلاق العبارات

التي يحتاجها ، مضيفا اليها عند الضرورة الكلمة الاجنبية ولكن بصورة عرضية .

وكان بيجين يكتب على مدى سبع سنوات (من سنة ١٩٧٠ الى سنة ١٩٧٧) مقالا مرة كل اسبوعين فى صحيفة « معاريف » الواسعة الانتشار يتحدث فيه عن نظرياته السياسية وافكاره الراهنة . ان لغته جميلة وشاملة وكلمته محددة . وهو لا يخاطب ذكاء القارىء فقط ولكن ايضا قلبه واحساسه . ويعمل على اثارة شعوره ولكن دون المساس بالواقع او تحريف الحقيقة . كما يذكر الماضى ليستلهم منه او ليأخذ من مصادره . ويشير بيجين فى كتابته الى المصادر التى استقى منها المراجع التاريخية والأقوال المأثورة . فمن هنا جاء هذا المثال وفى ذلك العصر عاش ذلك المؤرخ الذى أشار اليه . وكثيرا ما يبتهل الى السماء مستخدما عبارة من التوراة لا تترجم على الاطلاق ، تتألف من كلمتين معناها : « اشهدى ايتها السموات » ويخاطب بيجين القارىء مباشرة على غرار أسلوب أدب التلمود . وبين العبارة الحديثة والأسلوب الذى يرجع تاريخه الى آلاف السنين، يقع اختياره على الثانى حتى وان كان من أصل آرامى . يصاحبه طبقا للتقاليد ـ بعبارة « فليبارك الله ذكراه » ، واذا كان الأمر خاصا برجل عادل او رجل صالح فان العبارة المستخدمة تكون « فليبارك الله ذكرى الملك العادل » . واذا ما استدعى الأمر الاشارة بعد ذلك مباشرة الى شخص مازال على قيد الحياة ، فان يضيف بانتظام هذه العبارة « . مع الاختلاف مع الشخص سالف الذكر ، ليطل الله فى عمره » وذلك حتى وان كان من أيد خصومه السياسيين مثل جولدا مائير أو اسحاق رابين .

الحنان وحب الغير والاهتمام والرعاية للجميع هذه هى مميزات هذه العبارات التى اتخذتها اليهودية التقليدية ـ منذ قرون طويلة ـ عقيدة لها وقاعدة لحياتها .

واذا ما اضطر بيجين الى استخدام عبارة باللهجة اليهودية الالمانية التى لا يفهمها سوى اليهود الاشكينازيين ، فانه يعنى مباشرة بترجمتها الى اللغة العبرية ، حرصا على الا يعطى مثلما كانت عادة جولدا او ليفى اشكول، انطباعا بنبذ اليهود المولودين فى اسرائيل .

وقد قال الصحفى ناحوم بارنيه فى هذا الشأن : « لقد استحوذ اسلوب بليغ جديد على اسرائيل ويهود الشتات منذ ان تولى حزب ليكود السلطة . ان بيجين بتصرفاته وبلاغته واسلوبه ـ هو بالضبط ما اتفق على تسميته

« الشتات » . فهو يعبىء كل ما هو فى متناول يده ابتداء من رب اسرائيل الى أوشوينز ، مرورا بالانبياء ابراهيم واسحاق ويعقوب . لقد انتهى أسلوب « اصابرا » نهاية مؤكدة فى عالم السياسة .

وفى الواقع ، يستطيع المواطنون الاسرائيليون أن يكرروا ما كان يقوله جزافية خالا عن ليون بلوم فى مجلس النواب : « لأول مرة ، يتولى قيادتنا رجل ماهر من رجال التلمود » .

العقيدة :

وجه أعضاء حزب العمل اللوم الى مناحم بيجين ـ بعد مائة وثمانين يوما من توليه منصب رئيس الوزراء ـ لانه يرغب فى قيادة الاسرائيليين « بالأحلام » (كما كان شاتوبريان ينصح بقيادة الفرنسيين) .. وجاء رد بيجين عليهم خاليا من العبارات الحادة التى كان يستخدمها وهو زعيم المعارضة اما اليوم وهو فى موقع المسئولية ، فانه يجيب بهدوء ولكن باصرار « ان امتداد فترة تولى السلطة تؤدى الى الفساد . وتتمثل الديمقراطية السليمة فى نظام الحكم الذى يجرى فيه تغيير السلطة بهدوء ومن قبل ، كنت اقول لنفسى مواسيا اننا كنا طوال هذه السنوات نتقاسم المهمة مع الأحزاب الأغلبية لهم السلطة ولنا الجمال والنقاء . أما اليوم ، فيتعين على أعضاء حزب العمل وشركائهم فى حزب المابام أن يدركوا اننا قد منحناهم الاجازة التى يحتاجون اليها فليعملوا اليوم من خلال المعارضة » .

ولم يخف بيجين على الاطلاق انه لا يحب ما يطلق عليه « المزامير الاشتراكية » وأيضا التفاخر اليسارى . « فهو يجد فيه نوعا من الفساد الأخلاقى . ويثير الأسلوب الماركسى ـ مهما تكن المدرسة التى ينتمى ليها ـ ضبق هذا الرجل نادرا ما رأيناه يحتد أو يثور . حيث يعتقد أن الاشتراكية ـ لم تؤد سوى الى « انقسام الشعب » فى حين أن حلمه الخفى مازال « العمل دائما على توحيد القلوب » .

ويقول مناحم بيجين « ما زالت الشيوعية الاوروبية ـ سواء تعلق الأمر باتجاه مارشيه أو باتجاه برانجوير ـ تبسط نفوذها على الأجيال الجديدة وخاصة على الشباب اليهودى . ولقد تأكدت من هذا الشعور خلال لقائين مثيرين للاهتمام عقدتهما مع شبابنا فى ميلانو بايطاليا ويتعين على المرء أن يتحلى بصبر كبير فى أى مناقشة تدور بين رجل عجوز مثلى والشباب . ان الشباب هذه الأيام لا يراعون الاختيار فى كلماتهم . فلديهم القدرة التامة

على أن يقولوا الأشياء السيئة واللفظة التى يعلمها لهم أساتذتهم . ولكنى أقول بأننا لا يجب أن نيأس على الاطلاق . ولا حتى من هؤلاء الشباب .

ولقد لوحت احدى الشابات ، خلال هذا الاجتماع ، بقبضة يدها تحت انفى ، ولم يكن يبدو على مظهرها أنها من البروليتاريا الجائعة . بل على العكس كانت فى حاجة الى أن تصوم صوما عنيفا وطويلا . فالواقع أن الفرنسى مارشيه الذى لعن تقليد رفع قبضة اليد اليسرى لم يكن له تأثير عليها . قبضة العنف والانتقام . هذا هو ما توعدنا به جميعا ، بما فى ذلك أهلها وهم قطعا من البرجوازيين الطبيعيين .

وقد جرى ذلك بين جدران المدرسة اليهودية الشهيرة فى ميلانو أمام ثلاثمائة أو أربعمائة طالب كان من بينهم خمسون من الشباب متأثرين بتعاليم حزب المابام والشيوعية الأوروبية ، حيث اختلط كل شىء فى أذهانهم مما أدى الى خلق نوع من البلبلة .

ومثل هؤلاء الشباب هم الذين ينطبق عليهم ما قاله حكماؤنا بأنه لا قيمة للدراسة التى يصاحبها آداب السلوك .

أما آراؤه السياسية بالنسبة لليسار والشيوعية والاشتراكية والثورة القومية ، فقد سبق أن عرضها علينا مناحم بيجين منذ عدة سنوات مضت ، فى تل أبيب ، عندما كان مجرد زعيم للمعارضة . ويقول بيجين :

« لقد أعلن فيدل كاسترو ، منذ فترة من الوقت ، أن النظام الديمقراطى قد فشل ، ولم يعد هناك ضرورة لاجراء انتخابات ، وليس هناك ما يبرر وجود صحافة حرة . واذا كان هذا التصريح الثلاثى قد صدر فى مدريد ، لكان الفرد محقا فى تفسيره على أنه تنبؤ أو اعلان عن الفاشية الاسبانية . أما اذا كان قد صدر فى روما لقيل أنها الفاشية الايطالية الجديدة تنهض من رقدتها . ولكن من المعروف أن فيدل كاسترو ماركسى لينينى . فاذا قام بالقضاء على أساس الحرية أو عارضها فلا يحتج أحد . بل أن صحافة الدول الديمقراطية لا تنطق حرفا واحد » .

ويرجع أصل هذا التفهم الكبير الى الموقف الذى اتخذ . منذ القرن الثامن عشر ، قيل فى برلمان الثورة الفرنسية ــ وأصبح مقبولا منذ ذلك الوقت ــ أن اليمين محافظ واليسار تقدمى وبكل الغرور يعتبر الماركسيون بعد البيان الشيوعى لماركس وانجلز ــ أنفسهم تقدميين علمانيين وفى بداية القرن العشرين ، وبعد الثورة البولشفية ، قال الشيوعيون أنهم هم المثلون

الوحيدون اليسار والتقدم . أما اليوم فان الصينيين اتباع ماوهم الذين يؤيدون هذا الادعاء .

« وهكذا اعتاد الناس طوال حوالى مائة وثمانين عاما ، هذه الفكرة بأن هؤلاء الناس يمثلون اليسار والتقدم حتى وان كانوا يقضون على الديمقراطية ويحلون الأحزاب السياسية ويمنعون صدور الصحف ـ على طريقة المنظمات الفاشية .

ومازال هناك عدد كبير من الناس يعتقدون ان اليسار هو التقدم . ومع ذلك ، فان رجالا من الذين ينتمون الى اليمين ـ كانوا مصدرا لثورات ادت الى تطوير الانسانية وابتكروا انظمة حققت رفاهية وحرية الانسان فهل نذكر اسماء ؟ انهم لينكولن وديزرائيلى وهارتزل وماكس جوردان وجابوتنسكى وروزفلت وتشرشل وديجول . وعلى اية حال الم يكن هناك حتى من قبل الثورة الفرنسية ـ رجل مثل جفرسون هم فى الواقع رجال تقدميون ؟ ومع ذلك فانهم لم يكونوا ينتمون على الاطلاق الى اليسار .

« ولكن ما الذى يحدث ، فى مقابل ذلك ، فى المعسكر الاخر ، فى اليسار؟ انه لا يتقدم ، بل على العكس يتراجع . وهو لا يسهل اكتساب حريات جديدة بل يقضى على الموجود منها . ولا يرقى بالديمقراطية بل على العكس يطأها باقدامه . ان الشيوعية الروسية مازالت تتحدث بصوت عال وقوى باسم التقدمية ولكنها فى الواقع تحمل فى طياتها الرجعية والظلام كما تنكر القيم الانسانية » .

ومن البديهى تماما أن ماوتسى تونج قد صنع الكثير للملايين من الصينيين ولكن نظام حكمه كان شموليا .. ويتضمن كتابه الأحمر الصغير أشياء طيبة هى ثمرة تجربته الغنية التى اكتسبها خلال حرب ثورية ، ولكن من الصعب ان نجد فيه افكارا عميقة .

« ان كلمة ثورة فيها شىء غريب يجذب الانتباه ولقد طابق اليهود أساسا بينها وبين النقد الانسانى . ومع ذلك ، هناك ثورات ترجع بالانسان الى الوراء . فماذا حدث للانسان فيما يتعلق بحقوقه الطبيعية منذ الثورة الفرنسية وحتى ايامنا ؟ فى يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ، كان سجن الباستيل يضم سبعة مسجونين فقط . وكان أربعة منهم من بينهم المسمى بوجاد من المزورين الذين أدينوا . وقد افرج عنهم رجال الثورة .. وتم الاستيلاء على سجن الباستيل وهدمه . لقد كان رمزا لنظام الحكم السابق الكريه وللاوامر الاستبدادية .

وفى عهد ريشيليون ، كان يتم الزج بالرجال فى السجن بناء على أوامر الملك ودون محاكمة . وكان هدف الثورة وضع حـد لهذه الاعتقـالات التعسفية . ولا تمحو الواقعة المتمثلة فى أن سجن الباسـتيل لم يكن فى تلك الفترة ، سوى سبعة من البؤساء فقط ، اى شىء من الجانب الرمزى والهام للعمل الثورى . وبعد يوم ١٤ يوليو ، الذى كان يوم عيد بالنسبة لفرنسا وللانسانية بصفة عامة ، جاء يوم ٣ نوفمبر ١٧٨٩ وهو تاريخ بدء تنفيذ اعلان حقوق الانسان والمواطن . وتنص الفقرة الرابعة من هذا الاعلان على أنه لا يمكن اتهام او سجن أو القبض على أى شخص الا وفقا للشروط المنصوص عليها فى القانون . وقد تم اعداد البنود السـتة عشر الأخرى لهذا الاعلان التاريخى بحيث تضمن للانسان ـ بصفته انسانا ـ حـرياته الأساسية وقد كان ذلك تقدما حقيقيا .

« فما الذى حدث منـذ مائة وثلاثة وثمانين عاما وقعت خلالها ثورات اخرى ، كبيرة فلننظر الى العالم من اقصاه الى اقصاه ، من موسكو الى هافانا ، ومن بكين الى تيرانا ، ومن صوفيا الى براج . ما الذى نراه فيه ؟ لقد عاد اكثر من نصف الانسانية الى نظام الاوامر الاستبدادية ، وذلك بالاضافة الى الديكتاتوريات العسكرية المختلفة .

« لقد حلت ملايين من ابراج الحراسة ، فوق ومن حول ملايين الرجال الذين راحوا ضحية الدكتاتوريات الجديدة ، محل ابراج سجن الباستيل » .

« ولقد وصفت الثورة الفرنسية بأنها ثورة بورجوازية ولم ينكر ماركس أو انجلز أو بلاحنوف او لينين انها ولدت التقدم . أما هم فقد وعدوا بالقيام بثورة بروليتارية جديدة سوف تحقق لنا تقدما افضل خاصة القضاء على الدولة . ولكن الذى حدث بالفعل هو بالضبط عكس ما وعدوا به فقد عانت الانسانية كثيرا بسبب هذه الثورات . وعادت شعوب كثيرة الى الوضع الذى كان سائدا مثل الثورة الفرنسية . وبالطبع فان ذلك يعد عودة الى الوراء . وهو ما يمكن أن نطلق عليه لفظ الانتكاسة بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

« هل أنا شخص وطنى ؟ لقد قال هرتزل يجب التفريق بين الوطنية الايجابية التى تنبع من حب الآخـرين والوطنية السلبية التى تحركهـا الكراهية . وبالعبرية فان الوطنية تعنى ببساطة حب شعب ومحبة وطن . أما الوطنية فى مفهومها السلبى فانها تعنى كراهية الأجنبى واضطهـاد الاقليات » ..

« واننى اقترح أن يطلقوا علينا اسم انصار وحدة أرض اسرائيل بدلا من اسم الوطنية » .

ولا يفهم مناحم بيجين لماذا ينصرف الاشتراكيون بمثل هذه الفظاظة تجاه الذين لا ينتمون اليهم . ولماذا كان ، اساسا ، اسم استاذه الذى يحتذى به فى طريقة التفكير ــ زيف جابوتنسكى الا يذكر على الاطلاق تقريبا حيث كان محكوما عليه بما يشبه التحريم الدينى فى اوساط حزب العمل وكان مجرد ذكر هذا الاسم من شأنه أن يدنس من ينطق به . ويقول مناحم بيجين فى كتابه « حياتى » : « وهكذا فان جولدا مائير تتحدث عن الاتفاق الذى أبرم فى سنة ١٩٣٤ بين بن جوريون وجابوتنسكى ولكنها لا تذكر سوى اسم رئيس حكومة اسرائيل السابق . فكيف يمكن أن نتحدث بلغة اليسار وان نعيش بأسلوب اليمين ؟ » .

ومن المسلم به ان علاقات مناحم بيجين مع حزب المابام الاشتراكى الماركسى تعد اصعب من ذى قبل . ويرجع ذلك الى أن بيجين لا يفهم تماما كيف يمكن أن يكون المرء يهوديا وماركسيا فى نفس الوقت . وهكذا فان عدم التوافق فى الطباع بين المسئولين فى ليكود والمسئولين فى المابام يعد امرا دائما . وهو تنافر فى المبادىء والفلسفة السياسية والاهداف والقيم والاساوب . وفى الواقع ، لا يتفق ليكود والمابام الا على القليل فى النظرية السياسية .

ولقد صرح متحدث باسم حزب المابام فى أول مرة ينشأ فيها الكنيست الاسرائيلى فى الخمسينات ــ وكان ستالين مازال على قيد الحياة بقوله ان الاتحاد السوفييتى هو وطننا الثانى » .

ويروى بيجين قائلا : « ولقد طلبت منه حينذاك ان يتذكر ان كلمة « وطن » بالعبرية غير قابلة للجمع .. فلا يمكن ان يكون للمرء الا وطن واحد كما لا يمكن أن يكون له الا ام واحدة » .

كما أن ما يأخذه بيجين ورفاقه على فلاسفة المابام هو أمر أخطر من ذلك بكثير حيث يتعلق بالقيم التى ترسيها كل أيديولوجية : ويقول بيجين : « لقد ناضل اليهود ــ طوال تاريخنا ــ من أجل اقامة معبد لقد قدرت ايديولوجية الكيبوتز ، عن عمد وباصرار ، قيمة انشاء المعبد والمدرسة الدينية وفقا لحساب الأرباح والخسائر . ولكن ماذا عما اقترح كبديل لهما ؟ » وما هو قلب الكيبوتز ؟ لقد أقام مؤسسوه نظام تعليم غير يهودى ومدارس تخرج شبابا لا يفهمون اليهودية على الاطلاق ولا يعرفون كيف

يتصرف المرء فى معبد وغير قادر على قراءة نص لاساتذة القانون ولا يعرفون شيئا عن الأدب الدينى او الفلسفة اليهودية » .

ولقد اخذ مناحم بيجين وزملاؤه طويلا على رجال حزب العمل ارتجال سياستهم وافتقادهم للخيال فى اللحظة التى يتقرر فيها لاجيال قادمة مستقبل المجتمع الاسرائيلى . واخيرا انهم اقاموا فى الادارة الوطنية نظام « الحماية » ، وجعلوه نظاما تأسيسيا ..

ويقول احد الأصدقاء المقربين من رئيس الوزراء : « اننا نختلف عن حكومة اسحاق رابين فى ترابطنا . لقد كان الفريق السابق منقسما داخليا، حيث كان كل عضو من اعضائه يفكر فى الاعتداء على جاره بطعنات فى الظهر اما نحن ، فاننا نتحدث نفس اللغة . ان ناحوم جولدمان نفسه يعترف بأن هناك اخيرا « حكومة وزعيم وسياسة » . وفضلا عن ذلك ، لم يعد مجلس الوزراء ينعقد فى « المطبخ » ، كما كان يحدث فى عهد جولدا مائير . واصبح الوزراء يدرسون كل الملفات . لقد كانت حكومة اسحاق رابين توحى احيانا بأنها كالشخص الذى يتخبط بحثا عن طريقه .. اما سياسة ليكود فهى مكونة من نسيج واحد وترتكز الى أسس أيديولوجية . وهى سياسة محدودة ترتبط بأهداف جوهرية وفى عهد اسحاق رابين ، كان تسرب الانباء عما جرى فى مجلس الوزراء أمرا يحدث بصورة مثمرة ومنتظمة : اما فى عهد ليكود فليس ثمة شىء من هذا القبيل » .

وهكذا نرى أن علاقات بيجين مع الزعماء التاريخيين لحزب العمل ــ سواء تعلق الأمر بين جوريون أو جولدا مائير ــ كانت تتسم باستمرار بنوع من التنافر فى الطباع . وقد وجد بيجين ، مع ذلك لغة مشتركة مع رجال أمثال موشى ديان وشيمون بيريز . ومن قبل انتخابات ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ كان بيجين زعيم المعارضة فى ذلك الوقت ــ يلتقى بالجنرال موشى ديان ليجريا معا تحليلات عميقة لكل أوجه السياسة الاسرائيلية . ولقد التقى ديان ــ غداة مناقشة (أدارها مؤلف هذا الكتاب) أجراها فى باريس بمناسبة صدور كتابه ــ سرا مع مناحم بيجين الذى كان موجودا حينئذ بالعاصمة الفرنسية .

وهناك بالتأكيد ، نقاط مشتركة قليلة بين هذين الرجلين فالأول (ديان زعيم عملى لا يهتم الا بالأشياء الواقعية ، اما الآخر (بيجين فانه يخلص الى أبعد حدود الأخلاق لحزبه وآرائه الايديولوجية . ولايحترم ديان الا عددا قليلا من الناس ، ينسى صداقاته بيد انه يصر تماما على تسوية حساباته مع هؤلاء

الذين أساءوا اليه . وعلى الرغم من بلوغه الثالثة والستين من عمره ، الا ان لغته العبرية هى لغة الصابرا التى تتسم بفقرها فى الكلمات الى درجة انه يقوم ــ بين الحين والآخر ــ بسؤال أحد مستشاريه عن الكلمة العبرية المعادلة لتلك الكلمة الانجليزية . خلال الزيارة التى قام بها ديان فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧ للولايات المتحدة ، ابلغه همفرى النائب السابق للرئيس الامريكى من المستشفى الذى كان يرقد فيه ، انه يرغب فى مقابلته لعدة دقائق فقط . ولم يستجب ديان لهذا الطلب على الاطلاق بحجة « ضيق الوقت » . وقد دفع له اليهود الأمريكيون حينما القى ، منذ عدة سنوات سلسلة من المحاضرات فى امريكا ــ اربعة آلاف دولار كل ليلة ... وعندما انضم فى شهر يونيو سنة ١٩٧٧ : الى فريق مناحم بيجين متوليا منصب وزير الخارجية ، لم يكن قد استعاد هيبته داخل البلاد منذ أخطاء حرب كيبور والتى يعتبره قطاع كبير من الراى العام مسئولا عنها جزئيا . ويحتاج ديان اذن الى استعادة اعتباره امام المجتمع او بعبارة ابسط ، الى ان يعود الى العمل العام .

ولكن ما الذى يدفع مناحم بيجين الى الاستعانة برجل يتعرض لمثل هذا النقد ليتولى مثل هذا المنصب البارز ؟ واذا كان اختيار ديان لهذا المنصب يعتبر بحق عملية طيبة من جانب بيجين فان ذلك يرجع أولا ــ كما قيل ــ الى انها تثير بعض التشويش فى المعسكر المعادى . بيد أن بيجين يعمل اساسا على استغلال هيبة الجنرال ديان الدولية فى المعركة السياسية التى تستعد لها اسرائيل . ولا يجهل بيجين ، اخيرا ، أن ديان ليس ملتزما متزمتا على الاطلاق وانه يتمتع بقدرة على التصور يمكن الاستفادة منها فى المفاوضـــات .

ومع ذلك ، وعلى مستوى الأفكار ، فان ديان لا يختلف كثيرا مع مناحم بيجين فيما يتعلق بالاختيارات الجوهرية فهو يرى ايضا أن تاريخ اسرائيل المعاصر يجب أن يرتبط بالقرون الماضية . وتشوب كلماته نفحة روحانية حيث يقول :

« ان مصيرنا هو أن نناضل باستمرار .. وكما حدث فى الماضى ، ويجب ان ترتكز اجابتنا اليوم على سؤال « ما الذى سوف يحدث » ؟ على التأكيد باننا سوف نصمد امام الصعوبات اننا لا نملك حلولا حاسمة لمشكلاتنا التى اواسى نفس بالقول بأننا كنا مضطرين ــ منذ اربعة آلاف عام فى تاريخنا الى النضال باستمرار .

« واذا ما سألتمونى عما اذا كان لدى جدول زمنى يحدد تاريخ انتهاء هذا النزاع ، فان اجابتى ستكون لا » .

« ما الذى سوف يحدث ؟ هذا هو السؤال اليهودى الحق . اننا نردده منذ اربعين قرنا ويمكن القول بأن الاهتمام بمعرفة ماالذى سوف يحدث لنا هو أمر يتعايش مع وجودنا . اننا نتطلع الى الاستقرار على اعتبار انه أمل اكثر منه حقيقة واذا كنا قد حققنا ـ من حين الى حين ـ فذلك لم يكن الا لفترة مؤقتة تكفى لاستعادة القوة لمواصلة النضال » .

ويعتقد ديان ـ مثل بيجين ـ فى اعماق نفسه أن العرب لن يقبلوا على الاطلاق وجود دولة يهودية . « فهل هو قدر محتوم ؟ يقول مناحم بيجين : « ان فكرة القدر غريبة عن اليهودية . ويمكن تجنب الحرب ولكن لا يمكن تجنب السلام . ولا توافق الدول العربية اليوم على أى خطة اسرائيلية وفى الحقيقة : سيبدأ أعداؤنا فى التفكير جديا فى السلام عندما سيتوصلون الى خلاصة انهم لا يستطيعون القضاء على دولة اليهود » .

« اننا شعب صغير ، ولقد عانينا الكثير قبل أن نصل الى هنا ... ولن نركع أمام الطغاه لاننا نعرف اننا أبرياء . ان هذا البلد الصغير ملك لنا . نحن لم نلحق الضرر على الاطلاق بعربى واحد كما اننا لم نسمح الى ذلك على الاطلاق » .

« اننى أريد أن أقول اليوم ما كنت أقوله منذ سنوات . اذا كنا نستطيع أن نتذكر فسوف ننتصر على كل أعدائنا . انهم لن ينجحوا ابدا . وحتى اذا توصلوا الى السيطرة علينا فسوف نطيح بهم . واذا لم يكن لدينا سلاح ، فسوف نصنعه . وسوف تساندنا روح الحرية » .

بيجين ، هل هو ارهابى ؟ ان الكلمة تدفعه بالأخرى ، الى الابتسام . لقد افترت عليه بعض الصحف الشيوعية ونسبت اليه أحيانا تصريحات ملفقة . ويقول بيجين : « مثل ذلك «التصريح الذى نسبته الى ببساطة الصحيفة الشيوعية « صديقنا » التى تصدر فى أوروجواى (باللغة العبرية): « سوف نجبر العرب على الخضوع لنا تماما » . ان الكذب له أجنحة . ومرة أخرى فى سنة ١٩٧٥ سألنى صحفى فى التليفزيون الانجليزى ، بغتة وبطريقة مباشرة عما اذا كنت قد صرحت حقيقة « بأننا سوف نقيم حضارتنا الجديدة على أطلاق حضارة العرب » . لقد نسبت الى صحيفة « روسيا السوفيتية » هذا التصريح فى مقال بعنوان « النازية، ايديولوجية الصهيونية» . كيف يصدق هذا الصحفى الانجليزى اننى يمكن أن أدلى بمثل تلك الكلمات؟ .

ويعتقد بيجين ـ مثل ديان ـ اعتقادا راسخا أن بعض الدول العربية مازالت ترغب فى القضاء على اسرائيل ، وربما تلجأ الى تحقيق ذلك على مراحل . ولذلك لا يوافق بيجين على الاطلاق على التحدث عن منظمة التحرير الفلسطينية التى يسميها « مركز تجميع القتلة » .

ويقول بجين : « كان يتعين علينا أن نسمى هذه المنظمة بالاسم الوحيد الجدير بها وهو منظمة النازيين العرب » ويضيف بيجين متذكرا العملية الناجحة التى قام بها الكوماندوز الاسرائيليون فى مطار عنتيبى فى أوغندا فى شهر يوليو سنة ١٩٧٦ « .. لقد أقسمنا ، نحن رجال هذا الجبل : قسم الولاء لذكرى أمهاتنا اللاتى ذبحن وآبائنا الذين قتلوا وأبنائنا الذين ماتوا خنقا باننا لن نضحى مطلقا بالشرف والدم اليهودى » .

ولا يرغب شعب آخر فى السلام بقدر ما نرغب نحن . وليس فى ذلك ما يثير الدهشة فلم يفقد اى شعب آخر ثلث أبنائه مثلنا . ولم يحدث أن أى شعب آخر فى كل انحاء العالم لم يحصل ـ طوال النصف الأخير من هذا القرن على عام سلام واحدة . ويجب ان نتذكر انه حينما يقول أعداؤنا انهم لن يقبلوا توقيع اتفاق معنا الا اذا انسحبنا الى ما وراء حدود ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ وبعد حل مشكلة الشعب الفلسطينى ـ فان ذلك لا يعنى سوى الرغبة فى القضاء على دولة اليهود » .

ولم تكن حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧ ، بالنسبة لمناحم بيجين ، سوى « حرب دفاعية » . وعندما يتحدث عنا ، فهو لا يتحدث كرجل سياسة ولكن كمؤرخ ان لم يكن كمتصرف ومن عادة بيجين أن يستخدم الكلمات الرنانة فى حديثه . وينبعث ذلك من اعماق طفولته ومن أعماق التاريخ . ولقد تعلمه من أستاذه ومرشده زييف جابوتنسكى . ولا يتردد بيجين ـ مثل أى حاخام ـ فى مراجعة القرون الماضية من تاريخ شعبه . ويقول بيجين :

لقد كنا محاطين ـ فى شهر مايو سنة ١٩٦٧ ـ بدول قوية ، وكان ثلثمائة الف جندى محترف مدربين على « الحرب المقدسة » يرغبون فى القضاء على اليهود . وكنا نسمع النداءات التى تدعو الى ابادتنا . لقد كانوا يقولون فى دمشق وعمان والقاهرة وبيروت . لقد حانت ساعة القضاء على دولة اسرائيل .

« وفى مجلس الوزراء ، كنا واحدا وعشرين يهوديا مجتمعين ، اجتماعا سريا . ولقد كانت القائمة فى ذلك اليوم ـ اكثر قاعات العالم « انغلاقا » ما الذى يجب ان نفعله لانقاذ شعبنا من « شوا » جديدة ! وهى الكلمة

العبرية التى اطلقت على الكارثة التى تعرض لها الشعب اليهودى اثناء الحرب العالمية الثانية) . وفى هذا اليوم ، قدم احد كبار ضباط الجيش تقريرا سريعا ينص على أن الحرب التى سوف تفرض علينا قد تكلفنا مائة الف رجل . وكانت سلطات الجيش الرسمية تتحدث ، من جانبها : عن ثلاثين الف قتيل على الاقل وقد اسفرت المعارك فى النهاية عن مقتل ٧٩١ رجلا من ابنائنا وجرح الفين آخرين . وقد كان ذلك بالنسبة لنا تضحية غالية . ولكن مالذى كان يمكن أن يحدث لو أن الذين قتلوا كانوا مائة الف او حتى ثلاثين الف .

لقد قلنا لانفسنا فى مجلس الوزراء باننا لا نعرف كيف سيكون رد فعل الرأى العام الدولى ، ولكننا كنا ندرك جميعا ــ فى هذه القاعدة ــ اننا اذا اصدرنا الأمر بالهجوم فالأمر يتعلق هنا بحق الدفاع عن النفس ، فهى اثبل معنى من معانى تاريخ الانسانية . ولم يكن الامر يتعلق فقط بانقاذ الدولة ولكن بتجنب تعريض الشعب اليهودى لكارثة ثانية .

« وهناك قاعدة ذهبية فى القانون الدولى . اذا ما حاربت أمة دفاعا عن نفسها وقضت على المعتدى بعد حرب ، فان النتيجة تكون ــ فى اتفاقيات السلام ــ فى اجراء تعديلات فى الأراضى . وانى اقول ذلك بوضوح دون تعقيد .

« ولقد حدث ذلك ، بعد الحرب العالمية الأولى ، عند ابرام اتفاقيات فرساى وثريانون وسان جرمان ولوزان للسلام .. كما حدث ذلك ايضا بعد الحرب العالمية الثانية بعد توقيع ميثاق الأمم المتحدة فى باريس سنة ١٩٤٧ ، بعد عقد اتفاقية السلام مع فنلندا وايطاليا ، والمجر ورومانيا وبلغاريا . وكذلك بعد اتفاقية سنة ١٩٥١ التى أبرمت بين أمريكا واليابان واتفاقية سنة ١٩٥٦ بين الاتحاد السوفيتى واليابان .

« اننا نقول ببساطة أن هذه القواعد سارية المفعول بالنسبة لكل الشعوب وبالتالى فانها سارية المفعول بالنسبة للشعب اليهودى أيضا ..

« لقد كانت حرب الأيام الستة فى الحقيقة حدثا « ثوريا » سواء بالنسبة ليهود العرب أو بالنسبة ليهود الشرق . ويأتى آلاف من اليهود ــ وسوف يستمرون فى المجىء من بلاد الهجرة اليهودية المعتادة ليلتحقوا بنا . وقد جرت العادة على أن يغادر الناس البلاد التى يعيشون فيها ــ بل واحيانا أوطانهم ــ ليحسنوا مستوى معيشتهم . واليوم ، يأتى آلاف اليهود الى

هنا وهم يدركون أن مستوى معيشتهم سوف ينخفض . وفى الحقيقة فان الامر لا يتعلق بالهجرة ولكن بالعودة الى الوطن » .

ويعتقد مناحم بيجين أن حرب كيبور فى شهر اكتوبر سنة ١٩٧٣ ــ لم تكن ممكنة « لولا كل الاخطاء التى ارتكبت عندنا » وفى الواقع ، كان العرب يعرفون اننا لم نكن مستعدين . ولقد رصدوا ما كان يحدث عندنا ، وقبل يومين من الهجوم ، قال السـادات : الآن ، فات الاوان لكى يستعد الاسرائيليون .

واليوم ، يعرف كل فرد الخطأ الفاحش الذى ارتكبناه فى ذلك الوقت . اننا لم نتحرك وكانت قواتنا بعيدة عن الجبهة . ولقد وجد ٤٣٦ من شبابنا انفسهم على الضفة الغربية لقناة السويس فى مواجهة سبع فرق مصرية . وكان العدو يعرف على وجه الدقة توازن القوى على هذه الجبهة .

« وفى الجولان فى الشمال ، كان هناك ١٧٠ من دباباتنا فى مواجهة ١٤٠٠ دبابة سوفيتية ــ سورية ، وهنا ايضا كان العدو يعرف بالتحديد نسبة القوات فى الميدان وهكذا اندلعت حرب كيبور هذه . وبعد ، فاننى اكرر انه ليست هناك حرب لا يمكن تجنبها ولا اقبل الحجة التى تقول بأن السياسة التى كنا نتبعها هى التى ادت الى هذه الحرب .

« ويمكن ان نثبت اليوم انه كان يمكن تجنب الحرب العالمية الثانية اذا لم يكن قد تم ابرام اتفاقية ميونخ سنة ١٩٣٨ واتفاقية موسكو فى شهر اغسطس سنة ١٩٣٩ . وقد كان من الممكن ــ بدون هذين الخطأين التاريخيين ــ تغيير وضع الانسانية واننى اقول بكل وضوح أن العدو هاجمنا بسبب ارتكابنا لخطأ جسيم قبل الحرب فى سنة ١٩٧٣ . بيد أن ذلك لا يتعلق على الاطلاق بسياستنا التى كانت سليمة فلم يكن يتعين اجراء اى تغيير فى الموقف دون ابرام اتفاقية سلام » .

ولم يكن مناحم بيجين يميل ، لفترة طويلة الى استراتيجية الدكتور هنرى كيسنجر او الاهداف التى يسعى لتحقيقها ، وفى حين كانت جولدا مائير ترى أن هنرى لم يكن على الاطلاق « عدو اسرائيل » (ولكن لماذا يجب ان نتوقع منه ان يساعدنا فقط لمجرد انه يهودى ؟) ، فان بيجين يوضح الفارق بصورة اكبر : « اننا نعرف عددا كبيرا من اليهود الذين بذلوا جهودا جبارة ليثبتوا للجميع انهم على الرغم من أنهم يهود ــ يتصرفون معنا « بموضوعية » وكانت النتيجة ، بالنسبة لنا ، مريرة » .

والنقطة المشتركة الوحيدة مع وزير الخارجية الأمريكية السـابق (بخـلاف الذكاء الجدلى) هى أن بيجين يحب كثيراً ـ مثل كيسـنجر « القصص الجميلة » وخاصة اذا كانت معطرة بروح الفكاهة اليهودية واذا كانت سياسية .

وهناك قصتان يفضلهما بيجين لأنهما تعودان به الى فترة من حياته لم يكن النضال يفتقر فيها الى الرومانسية .

« لقد كان ذلك فى عهد روسيا الستالينية . وكانت أكبر صحيفتين روسيتين همـا : « البرافدا » (الحقيقة) وهى لسـان حال الحـزب ، والأزفستيا (الأخبار) لسان حال الحكومة وكان المواطنون فى كل أنحـاء البلاد يتغامزون ويقولون :

ان صفحات « البرافدا » لا تتضمن أى أخبـار ، كمـا أن صفحات « الازفستيا » لا تقول الحقيقة .

وتتعلق القصة الثانية ايضا بالعالم السوفيتى :

« ما الذى سوف يحدث بعد تأسيس الشيوعية » ؟

ـ سيكون لكل مواطن سوفيتى طائرته الخاصة .

ـ وما الذى ستفعله بطائرتك ، يا ايفان ايفانوفيتش .

ـ يا له من سؤال يا بيوتر بيوترو فيتش ! ساقبع فى منزلى فى موسكو وبمجرد أن أسمع فى الاذاعة أنهم يوزعون الخبز فى كييف ، سـوف استقل طائرتى مباشرة اليها لاكون أول من يقف فى الطابور » .

العودة الى اليهودية

« يهود بدون الله ، هل يعقـل ذلك ؟
بل لا يمكن ان نتصور يهوديا بدون اله ؟ » .

دوستويفسكى

المجتمع العلمانى :

لم يقتصر التغيير على الناحية السياسية . ومن المؤكد أن « ثورة ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ الثقافية » ليس لها اية علاقة بالثورة الثقافية التى حدثت فى الصين منذ عدة سنوات بيد أنها لا تقل عنها واقعية فقد فر رجال من كل الفئات العـــودة الى التقاليد القديمة ــ التى تخلوا عنها فى وقت من الأوقات ــ والانطلاق فى التنقيب عن جذورها .

أن « التوبة » او العودة « بدعة اختلقتها اليهودية التى ترى انه ليس هناك أى شىء قط قد ضاع نهائيا مادام هناك تائبون هم فى الحقيقة افضل من اكثر الناس عدلا » .

وكانت هذه الظاهرة الدينية قد بدأت ــ فى الحقيقة ــ غداة حـرب الأيام الستة أمام حائط المبكى المجرد حيث عثرت طائفة من الجنود الملحدين الذين تملكهم الحزن الى حد الانخراط فى البكاء على جزء من ذكرى شعبها .

ومنذ ذلك التاريخ ، كانت تؤوب ، فى كل عام ، ضمائر قلقة وارواح متعطشـــة المتطلعـــة الى حظيرة التقاليد ، سعيا وراء « شـعلة القانون » ومصدر الحياة .

ومنذ شهر مايو سنة ١٩٧٧ ، اكتسبت هذه الظاهرة ، بفضل التغيير الذى طرأ على المسرح السياسى ، شيئا من الأهمية . ومن المؤكد أن ذلك لا يمثل بعد حركة مد ولا موجة منبعثة من الأعماق .

ولكن هناك بالفعل آلاف من الشباب ــ ومن هم دون الشباب ــ من اصل مختلف يمارسون « العودة الى التقاليد » . وفى هذا الشأن يقول يوسف زافين مؤلف دائرة المعارف التلمودية . « سنكتسح حركة العودة هذه ، المجتمع العلمانى » .

أى مجتمع علمانى ؟ فى الواقـــع ، كان الاباء الذين اسسوا الدولة من اتباع مذهب الملحدين والعقلانيين والماركسيين وقبل كل شىء المعادين ليهود الشتات ولم يكن من الواجب أن تكون الحياة فى الدولة التى كانوا يحلمون بتأسيسها ــ مشابهة على الاطلاق لتلك الحياة التى كان يعيشها أباؤهم

واجدادهم فى الاحياء اليهودية فى أوروبا . وهكذا اهملوا الدين من تاريخهم كما قدرت التقاليد ـ كل التقاليد ـ وفقا لحساب الارباح والخسائر .

وكانت التوراة تدرس باعتبارها احد كتب الأساطير . وكان ابطالهـا يجردون تماما من كرامتهم وقدسيتهم ويهوديتهم . وكانوا يسـعون الى تجاهل الفى عام من الثقافة والتعليم اليهودى . وما كان الشباب والبالغون يجهلون ماهية الأدب التلمودى وانه اذا كان النبى أموس قد أفلت من هذا التدنيس العام فما ذاك الا لأنه كان « يمكن استعادته » .

وكان يمكن تقديمه ببساطة على اعتبار انه أحد واضعى نظرية الاشتراكية اى كأحد أجداد تونتون ماركسى .

وباختصار ، كان الامر يتعلق بالنسبة لهؤلاء الاباء المؤسسين ، بخلق انسان آخر كان على نقيض الانسان اليهودى التقليدى : نصفه من اسبارطة والنصف الآخر من القدس . وهذا هو السبب الذى من أجله انتهجت ـ فى الخمسينات وغداة انشاء دولة اسرائيل ـ سـياسة منهجية للتخلص من الصبغة اليهودية وعلى سبيل المثال : كان الشباب فى سن المراهقة ـ الذين ينتمون الى عائلات تقليدية ، من المغرب أو من اية دولة اخرى يرسلون راسا الى مراكز التدريب فى « هاشومير هاتزائير » حيث كان يتم تجريدهم من التقاليد وثقافتهم وذاكرتهم .

واستبدل الدين بأفيون آخر هو تقديس الدولة .

وهكذا يكون فى البلاد معسكران متميزان ومتوازيان ، يجهل كل منهما الآخر ومتعاديان أشـد العـداء وليس بينهما اية وسيلة اتصال ، وهما : المعسكر الدينى والمعسكر العلمانى .

وكان أنصار المعسكر الدينى يعتبرون العلمانيين « اشخاصا غير يهـود يتحدثون العبرية » ، نوعا من الاسـتعمار الغربى الأجنبى لمصـادر ثقافة وتاريخ الشعب .

ولم يكن المعسكر العلمانى ـ الذى كان عدد أعضائه أكبر كثيرا من أعضاء المعسكر الدينى ـ يحتفر كثيرا اليهودى الموالى للمعسكر الدينى الذى كانوا يعتبرونه متخلفا ومن يهود الشتات ورجعيا وذا افق محدود . ويقول ادبن شتاينز السر فى هذا الشأن : « وهكذا كان المرء يحتاج لكى يكون يهوديا متدينا فى اسرائيل الى شجاعة فائقة يتعين عليه الانصـاف بها لكى يكون صديقا حميما للمحتالين وتجار المخدرات » .

ولقد بلغ الأمر الى حد أن المعسكر الديني كان يوحي أحيانا وكأنه « مخزن وطني » أو متحف يتم التحفظ فيه ـ على سبيل الذكرى التاريخية ـ على نوع من الحياة ، في سبيله أن أجلا أو عاجلا ، الى الاختفاء من الخريطة الاجتماعية للبلاد .

فهل نجح هذا الأسلوب في التدريب ؟ لا يبدو ذلك على الاطلاق لقد ظهر ثانية ـ من خلال شهادة الشباب ـ فكرة قديمة تقول : « لقد نجح آباؤنا في القضاء على التقاليد ولكنهم فشلوا في احلال أي شيء اخر محلها سواء أكانت قيما أو ثقافة أو ايمانا » .

ويقول مناضل اسرائيلي شاب : « أن حياتنا الدنيوية تبدو لنا قاتمة فارغة » . ويقول شاب من شباب الكيبوتز « في الوضع الراهن ، ليس هناك مخرج آخر سوى العودة بصورة جادة الى التقاليد . ولقد بلغنا الآن مرحلة يجري فيها نوع من العودة الى الحياة اليهودية » .

ويقول وزير التعليم الجديد من جانبه « ينعين اضفاء الصبغة اليهودية على الاسرائيليين . ويجب الا يشعر تلاميذنا بأدنى شك والا يكون لديهم أي تساؤل يتعلق بالهوية او الذات او الارتباط او الحق أو الواجب او الهدف . كما يجب أن تكون علاقاتهم بتراث اسرائيل وبالأرض والشعب مقدسة » .

ويرى زيبولون هامر ـ الذي يمثل الجيل الجديد للحزب الديني داخل حكومة بيجين ـ انه يتعين على الاسرائيليين الاستمرار في العودة الى الأصول الى القيم اليهودية ، والأخلاق اليهودية ، والأعمال الطيبة وحب شعبنا ووطننا .

ويتساءل طالب اسرائيلي قائلا : « في كل ما نفعله في هذا البلد ، اين هو الشيء الذي يعبر عن هويتنا وذاتيتنا اليهودية ، ان ثقافتنا لا يجب أن تكون مجرد تقليد لأساليب الآخرين » .

لقد تغير مظهر المجتمع الاسرائيلي بعنف فيما بين حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ ـ وحرب كيبور سنة ١٩٧٣ . لقد اختفى الجو الأسري الذي كان سائدا فيما مضى ، واختفى معه القليل الذي كان باقيا من التركة اليهودية .

واصبح الشباب يهزأ بوفاحة بأقدس مبادىء الصهيونية . وأصبحت كلمة الصهيونية نفسها محل سخرية طبقا لأصول روح الدعاية اليهودية

الازلية . وهكذا يصف أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية السابق تلك الحقبة من تاريخ اسرائيل فيقول : « يعتقد الصابرا أن القوة التى تتسم بها سياسة ما ليست فى التقيد بمذهب أو أخر ولكن فى أن تسفر عن نتائج ملموسة . وكانت النظرة الخيالية بأنهم « منار الأمم » تبدو ادعاء بقدر ما هى وهمية بالنسبة للجيل الشاب الذى كان يعتقد انه تحمل نصيبه من العبء بما فيه الكفاية دون الاهتمام بعبء الآخرين .. بل وفى الكيبوتزات نفسها بدأت البساطة التى كانت سمة الازمنة الغابرة تضيع .. وكان مصطلح « حبيل اسبرسو » يصف تماما هذا الشباب المستعد لتقديم كافة التضحيات أذا ما استدعى الأمر ، ولكنه يصر فيما عدا ذلك ، على أن يعيش حياته بأقصى قدر ممكن من الرفاهية .

هل نسير نحو التيوقراطية :

هل يعد مناحم بيجين مسئولا ـ قليلا أو كثيرا ـ عن الظاهرة الجديدة الخاصة بالعودة الى الأصول ؟ هل هو الذى دعا اليها أم أنه أيدها ربما يكون قد هدى ـ أساسا ـ شعبا الى أماله الخاصة ؟ وقد تأثر شعب الكلمة الالهية بهذا الرجل السياسى الذى يتحدث وكأنه صفحة من التوراة بذلك اليهودى العنيد الذى بكى فى أحد معابد بوخارست .. والذى ربما يعطى انطباعا سيئا لفئة من الشعب .

أن الشباب الاسرائيلى ـ الذى يعانى من عدم الرضاء ويتصف بالفضول ويلازمه القلق يشعر لدى سماعه حديث بيجين ، أن تاريخ شعبه يبعث من جديد . انه يرى الحياة تعود مرة أخرى الى هؤلاء اليهود الذين كان لديهم تصميم وليسوا مجرد أصحاب رسالة وكان أمامهم مصير وليس مجرد مستقبل وسبيل للحياة وليس مجرد عقيدة » .

ومن هم هؤلاء اليهود الذين يعودون مرة أخرى الى التقاليد ؟ انهم ينتمون الى كل الطبقات الاجتماعية وكل الاتجاهات السياسية والفلسفية . ويقول ذلك السفير السابق الذى كان ماركسيا سابقا ـ عضو كيبوتز بيت اودين فى الجليل وصديق بن جوريون الحميم : « لقد تخليت عن « رأس المال » وأبدلته بالتلمود وبتفسيراته . لقد وجدت جزءا صغيرا من حقيقتى » .

ويساءل أودى زوهار ـ نجم التليفزيون الاسرائيلى الذى يتمتع بشعبية كبرى حيث يعتبرونه جين بان الاسرائيلى ـ متسائلا : « هل يملك

مجتمعا ـ اذا لم يستخدم كلمات مثل الله أو الأخلاق ـ بديلا آخر سوى العودة الى اصـــوله » ؟ .

ويتساءل ابا ايبان ايضا وهو يتحدث عن تلك الغريزة المتأصلة من آلاف السنين . « فلنصلح انفســـنا من جديد ، أن نكون فخورين بأصـــولنا اليهودية ، وأن نثبت فى اذهان اطفالنا المعنى الذى تحمله تركتهم ، وأن ننقذ مجتمعنا من مخاطر الانحلال » .

ويقول الشاعر ابا نوفر « انها ظاهرة ايجابية يجب تشجيعها » . فى حين يعتقد الكاتب حاييم جورى « باننا نعيش زمن الصابرا القلق والحائر »

كيف نفسر اذن هـــذا المطلب الدينى وذلك البحث عن « الشـــعلة الجديدة » ؟ يقول جان لوك الوش : « أن المطلوب هو البحث عن هوية ، واسترداد الانا الثقافية والروحية المدمرة ، والبحث عن الجذور فى الذاكرة وكأن الجذور الجديدة المتأصلة فى الأرض العبرية لم تعد تكفى شعبا محكوما عليه بالاضطراب ، وأشخاصا « تائهين » ، معرضين لغارات عالم شرير ولعدو جائم يعرض باستمرار وجودهم للخطر . وهكذا يلتقى البحث الفردى مع القلق الاجتماعى ويتعذى عليه .. ولا تقتصر حركة العودة على مجرد أنها لقاء مع رب اسرائيل ولكنهـــا تدخل فى اطار صعود جـديد يائس للأرمان الغابرة ، ولأصول التقـــاء الصوفية فى التاريخ . وتريد اسرائيل استعادة روح عن طريق قفزة مهولة الى الخلف تمحو كل محاولات « التطبيع » التى بذلتها الصهيونية السياسية .. وطالما أن مصادفات التاريخ المؤلم لم ترد اسرائيل الى الوضع اليهودى ، وان القانون الدولى لم يعد سائدا فيحسن أن نسترد فى غمرة الحركة نفســـها شخصيتنا الســـابقة وشرعيتنا التى تمنحهما لنا التوراة وحدها .

ويشجع اسلوب الحديث الجديد للسلطة التى تولت حكم البلاد منذ شهر مايو سنة ١٩٧٧ بوضوح ظهور وتطور « حركة العودة » . الأمر الذى يعطى المعسكر الدينى الديناميكية والقوة فى مواجهة القطاع العلمانى . فلم يعد يعانى من العقد او الالتزام المتحفظ . وأصبح من الآن فصـــاعدا ، يتحدث بصوت عال ويطالب بالمزيد ، ولم يعد موضوعا للسخرية التى كانت تدور فى السهرات البرجوازية وهو الذى يقوم ، حاليـــا ، بمهاجمة المجتمع المعادى الذى يتهمه بالارتواء من « احواض مصدعة » . ولم تعد اليهودية الدينية فى اسرائيل ـ مع اختلاط كل طوائفها المختلفة ـ فى ظل حكم بيجين

تعانى مما كانت عليه حتى الآن من انطواء وتركيز على اختلافها . لقد استعادت حق ابداء رايها . ولم تعد تكتفى بالتعبير عن وجودها ولكنها تعلن على الملأ قضيتها ضد المعسكر المعادى : ما الذى فعلتموه بشبابنا . ؟

لقد اصبح المعسكر الدينى اليوم عدوانيا بقدر ما كان بالأمس ورعا ومنطويا وغير واثق من نفسه . وهو يراقب القواعد المحطمة للقانون العلمانى القديم ويطالب الجميع بتسجيل ذلك ، رسميا . كما لا يعترف فى نفس الوقت بكل الكتاب العلمانيين الذين يتحدثون باسم المجتمع الاسرائيلى الذين كانوا — حتى عهد قريب — يتباهون علنا بقولهم : اننا اولا اسرائيليون ثم فقط يهود . ذلك القول الذى اصبح مرفوضا من الآن فصاعدا . واصبح الاسرائيليون يقولون اليوم اكثر فاكثر : اننا يهود قبل أن نكون اسرائيليين.

وينوهون من الآن فصاعدا الى ان الدولة اليهودية هى « ثمرة الرؤية العريقة » وواقع التاريخ اليهودى . « واذا كانت شهادة ميلاد الدولة اليهودية قد صيغت اليوم فليس هناك ادنى شك فى انها كانت تتضمن الاشادة قبل أى شىء برب اسرائيل والانبياء وكل معلمى اليهودية الذين حافظوا على بقاء الشعلة . ومن يدرى فربما يأتى اليوم الذى تعاد فيه صياغة شهادة الميلاد العلمانية — التى كتبت سنة ١٩٤٨ وفقا للروح الجديدة .

ويزهو المعسكر الدينى بانه لم يعد ، الآن ، مضطرا للعمل بطريقة شبه سرية وان طريقته الاكاديمية — التى كانت تستقبل حتى الآن الهيبيز الامريكيين الذين يبحثون عما يسمونه كاتمانوو الجديدة ، او ارواحا ضالة — بتردد عليها اليوم جامعيون من ذوى الشهادات وشباب برجوازيين .

ويمكن للسلطة من جانبها ، أن تفيد فى كشف حسابها الخاص بما حققته من نجاح والتقارب الذى حدث فى نفس الوقت ، بين اسرائيل ومختلف عناصر يهود الشتات فى مكان يوجدون فيه . ولم يكن القاسم المشترك بين فرعى الشعب اليهودى — الفرع الذى تتكون منه دولة اسرائيل (٢٣٪) والفرع الذى يعيش فيه بقية انحاء العالم — فى يوم من الأيام بمثل هذه القوة التى هو عليها فى ظل حكومة مناحم بيجين . وعلى أية حال ، أو ليس للنهضة الدينية التى نراها فى اسرائيل امتداد ، وبعض الاصداء فى كل من باريس ولندن ونيويورك وجوهانسبرج ؟

أن اليهودية ليست دين الدولة فى اسرائيل (بعكس الاسلام الذى هو الدين الرسمى فى اغلب الدول العربية) ولكن هل أصبحت بالفعل دين الدولة ؟ ولن يؤدى ذلك بالمتطرفين من اتباع التطبيق المتشدد فى ظل ظروف مواتية لهم مثل هذا القدر الى زيادة حدة الجانب الاكليروس لاسرائيل ؟

ولن يؤدى ذلك الى تشجيع المتطرفين فى تشددهم على الاعداد ـ داخل البلاد ـ لبعث مدينة ترتكز فقط على التقاليد ، دون انفتاح حقيقى على عالم القرن العشرين واولا ، ما الذى سوف يقترحونه على المجتمع الحديث فى اسرائيل ؟ وما هى خطتهم الاجتماعية وفلسفتهم ؟ وعقيدتهم ؟ وما هى الحلول التى يقترحونها لحل كافة المشكلات المتعلقة التى تثيرها المدينة فى وجه اليهودى فى نهاية هذا القرن ؟

هذه هى فى الحقيقة ، الأسئلة التى يمكن أن تثار امام استعادة المجتمع الدينى فى اسرائيل لقوته . فاذا كان من الممكن أن تساعد هذه النهضة يهودية الحاخامات على الخروج من جزيرانها ومقارها ، ووضع حد لاضمحلال الفكر الدينى ، وايجاد التوازن الضرورى بين القيم المبدئية للشعب اليهودى والأعمال التى تفرضها الحياة وحقيقة العالم ، فمن المؤكد أنها سوف تكون نهضة مفيدة . ولكن هل سيقتصر استخدامها على ذلك فقط ؟ اليس هناك احتمال فى أن تقوم صلات خاصة ومفضلة بين الدين والسياسة ؟ ولن يؤدى كثرة الدفاع المطلق من قلعة « الهالاكها » (الشريعة اليهودية) الى منح الدين سلطة فى مجال السياسى ؟

ان خطورة دين يتسم بالنضال تكمن فى انه قد يصبح فى يوم من الايام دينا مسيطرا وليس دينا متسامحا . فهل اسرائيل « العودة » بمنأى عن هذا الخطر أو أن ذلك ليس سوى العلامة المبشرة « بصهيونية الله » وبالثيوقراطية حكومة الهية يشرف عليها رجال الدين) .

لقد كتب روبين ماس ـ الذى كان يطرح على نفسه هذا السؤال بالفعل ـ فى سنة ١٩٤٦ فى كتاب « الدولة اليهودية » ـ يقول اذا كان الايمان يحافظ على وحدتنا ، فأن العلم يحررنا . وبالتالى فاننا لن نقبل أن يعمل رجال ديننا على تنمية الذبذبة النيوقراطية . وسوف نتمكن من ابقائهم فى معابدهم كما تبقى جنودنا المحترفين فى ثكناتهم .

البيجينية :

ما هى البيجينية ؟

أنها العمل الذى يقوم به رجل فى محاولة لدفع التاريخ والسيطرة عليه أنها حياة مكونة من الجراة والخفة وأيضـا من الثقة فى السير على الطريق السـليم .

لقد اختار بيجين طريقة وهو مازال بعد شابا يافعا : أن نضاله يستند فى نفس الوقت على عقيدته وفعله والكتاب ، ولكن أيضا ، عند الحاجة ، على السيف . ان الموت والالم لا يثيران خوف الرجل الذى يؤمن ايمـانا مطلقا بفكرته وعقيدته .

لقد كون بيجين لنفسه ـ طوال حياته ـ فكرة معينة عن بلاده وشعبه وأرضه . وقد كان من الممكن أن يغير هذه الفكرة وعندئذ كان الطريق الى السلطة سيفتح أمامه على مصراعيه .

ولكنه فضل ان يظل على مبدئه طوال ٢٦ عـامـا .

أن بيجين لديه احساس بالمصير وباغراء التاريخ . فهو يتطلع الى أن يسطر اسمه فى قائمة مؤسسى اسرائيل الكبار ـ ان لم يكن فى قائمة انبيائها وهو يريد ـ أكثر من أى شخص آخر ـ اضفاء معنى جديد على نضـالـه الماضى ..

وكان اندريه مالرو يقول : « ان المصير هو خطوة تتسلل من باب نصف مفتوح » . وهذا ما فعله مناحم بيجين فى يوم ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ ولم يعد منذ ذلك التاريخ ، مجرد زعيم ليكود الذى رأسه وكذلك المجتمع السياسى الاسرائيلى . أنها فى نفس الوقت ، حياة نضال أصبحت موثقة ومؤكدة . أنها بالنسبة لبيجين الانسان ، ذكرى جديدة لوجوده ، ومصير معكوس .

بيد أن هناك ، فى الواقع شيئا مؤلما الى حـد ما فى حياة هذا الرجل الذى أصيب بأزمة قلبية فى نفس اليوم الذى توج فيه نشـاطه السياسى وتحقق فيه الهدف من نضاله : أى تولى السلطة . ويدرك مناحم بيجين ، منذ ذلك الحين أنه دعى لتولى الأمور فى وقت متأخرا قليلا . ولذلك فأنه يعجل فى القيام بمهامه . وهو يريد تكريس الوقت القليل الذى يتبقى له فى استكشاف سبل السلام مع جيرانه العرب وأيضا تشكيل اسرائيل الغـد

بقدر المستطاع واعادة هذا الشعب صعب المراس (فليس من السهل حكم اليهود) الى حقائق الأمس واصالة تاريخه . وعلى الرغم من أن الصهيونية كانت باستمرار على حد قول انى تريجر ـ « فى العالم ، وفى مواجهة العالم ومع العالم » ، الا انها يجب أن تكون ـ على حد قول بيجين مع اليهودية .

والبيجينية عقيدة أيضا

أن وصول زعيم ليكود الى السلطة يشكل ايضا انتصارا متأخرا لزييف جابوتنسكى جاء بعد وفاة بن جوريون . أو نوعا من انتقام الصهيونية الوطنية من الصهيونية الاشتراكية . علما بأن بيجين لا يستخدم الفاظا مثل كلمة « انتقام » .

وهل يمكن أن تجيب هذه العقيدة على تساؤلات المجتمع الاسرائيلى فى أعوام الثمانينات ؟ الا تعد حبيسة لايديولوجيات ظهرت فى نهاية القرن الماضى وربما تجيب على اسئلة لم يعد أحد يثيرها ؟

وهل تستطيع الشبكات السياسية التى اقامها ـ بالدم والنار ـ جابوتنسكى وانصاره أن تفك رموز اسرائيل الصناعية والمتقدمة ثقافيا التى آلت الى بيجين ؟ واليس من المحتمل ان يؤدى الطوق العقائدى ـ الذى كان يتحلى به ليكود وهى فى المعارضة الى شل حركتها اليوم وهى فى السلطة؟ وأخيرا ، هل يستطيع بيجين تنفيذ فكرة سياسية جديدة يمكن أن تصمد فى مواجهة صدمة المستقبل ، وتمنح شباب بلاده اسبابا للبناء والأمل ، والعمل بحيث يكون لجيل الرواد خلفاء جديرون به ؟

والبيجينية هى ، أخيرا ، امكانية التأقلم مع الأوضاع الجديدة وامكانية المباغتة .

من يخلف بيجين :

أن مناحم بيجين ليس له ـ مثل ديجول ـ خليفة . ودون شك ، فانه يجيب حين يطرح عليه هذا السؤال بقوله « لسنا بملكية اننا جمهورية وأنا جمهورى بكل كيانى .. بيد أن عقيدتى لن تجد من الناحية العملية ـ من يدافع عنها ، متى انسحب بيجين من الساحة السياسية .

ويتسم هذا السؤال بأهمية خاصة بسبب الحالة الصحية لرئيس وزراء اسرائيل أن مناحم بيجين ينتمى فى الواقع ، الى هؤلاء « الرجال المرضى الذين يحكموننا » . فهو مريض بالقلب وقد اضطر ـ منذ انتخابه

لرئاسة الحكومة ـ الى دخول المستشفى عدة مرات ـ بل وقد عقدت بعض جلسات مجلس الوزراء فى مستشفى ابخيلوف فى تل أبيب حيث كان يعالج .

ويدرك بيجين ان الوقت ليس حليفه .. ويقول رئيس الوزراء الاسرائيلى : « لم يعد أمامى سوى بضع سنوات للعمل .. ولقد قلت منذ فترة أنه اذا ما اطال الله فى عمرى وبلغت سن السبعين فسوف أعلن ، فى ذلك اليوم ، انسحابى ليس فقط من البرلمان ولكن من الحياة السياسية بصفة عامة » .

واذا ما توصلنا ـ خلال السنوات الأربع القادمة ـ الى تجنب الحرب وبناء منازل لخمسة وأربعين أسرة تعيش الآن فى حالة من البؤس وايضا الى النهوض بالاقتصاد وبالوضع الاجتماعى لبلادنا ، سيكون فى وسعى حينئذ أن أعلن فى هدوء وسكون أنه من الأفضل ان يواصل المهمة رجل يصغرنى سنا .

ويعتزم مناحم بيجين أن يعيش ـ بعد أعتزاله الحياة العامة ـ فى نعوت سيناء وهى ضيعة تقع بالقرب من العريش ـ مثلما أقام بن جوريون فى سدى بوكر .

ويقول بيجين : « أرجو أن أتمكن بعد اعتزالى ـ من تأليف كتاب بعنوان « جيل الابادة والنهضة » ، وهو مؤلف سيضم الفى صفحة على الأقل ويتكون مما لا يقل عن ثلاثة اجزاء .

« ان جيلى ـ الذى ولد فى خضم الحرب العالمية الأولى ، لم يعش ، فى الواقع ، حياة طبيعية الا لمدة عام أو عامين فقط ، لقد عانى من الحرب والآلام والجوع والسجون والمعسكرات والنفى والدموع والدم . انه جيل من أجيال التوراة .

انى أشعر بنوع من الالتزام تجاهه يحتم على كتابة هذه الصفحات الالفين التى سوف أحكى فيها عن الهبوط الى الجحيم ولكن فى نفس الوقت أيضا عن التحرير والارتقاء الى القمم .

« لقد عانى هذا الجيل أكثر من كل الأجيال التى سبقته فى تاريخ إسرائيل ولا تقل شجاعته عن شجاعة المكابيين .

وأين مكانه فى تاريخ الغد ؟ يقول بيجين : « لقد قلت مرارا لأصدقائى ـ وكررته عشية انتخابات مايو سنة ١٩٧٧ ـ ان المركز الذى سوف يعهد الى مهما بلغ شأنه لن يساوى ، بكل تأكيد ، ما قمت به أنا وزملائى حينما كنا نعمل فى المقاومة وأثناء حرب تحريرنا :

ولقد أصبح مرض رئيس الوزراء منذ البداية مسألة سياسية . وتقوم الطبقة الحاكمة بتحليل تقاريره الصحية ، وفحص قسمات وجهه، كما تدور التعليمات فى ردهات الكنيست وفى كل المنازل لدى ظهور أقل علامة اعياء عليه .

من الذى سيرث التركة ؟ ترى من هو الخليفة المنتظر ؟ ان ثلاث او اربع شخصيات فقط من بين أعضاء الحكومة ـ التى شكلها مناحم بيجين فى شهر يونيو سنة ١٩٧٧ والتى ـ دعمها فى شهر اكتوبر بوزراء ينتمون الى الحزب الجديد ـ الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ـ داش هى التى يمكن ان تسعى للخلافة أما بقية أعضاء الحكومة فأغلبهم سياسيون متواضعون يفتقرون الى النفوذ السياسى والمعنوى الذى يتسم به الزعماء . وربما يشعر بعضهم بالراحة اذا ما عملوا كمدربين أو موظفين أكثر منهم فى حالة اضطلاعهم بمسئولية وزارية ولم يكن بيجين قد اختارهم لمزايا شخصية أو لذكائهم السياسى ولكن لأنهم مندوبون عن أحزابهم الخاصة . وانهم ليسوا بمرشدين أو زعماء ولكنهم رجال أجهزة وثعالب سياسيون وكما كان يقول معلمه جابوتنسكى : « تذكر تماما أن أى حكومة تتكون من رجال متوسطين وبسطاء ..»

ويمكن اذن أن ينحصر السباق على الخلافة حين يبدأ بين أربعة رجال لكنهم جنرالات سابقون هم : عزرا وايزمان واريل شارون وايجال يادين وموشى ديان .

ويعد الأول احد مؤسسى سلاح الجوى الاسرائيلى وكان قائد العمليات خلال حرب الأيام الستة . وكان دائما يتولى منصب رئيس هيئة الأركان ولكن حلمه لم يتحقق أبدا . وفى سنة ١٩٦٩ ترك الجيش ليقتحم ميدان السياسة وكان وزيرا للنقل فى حكومة الوحدة الوطنية التى شكلها جولدا مائير . وتتسم علاقاته مع مناحم بيجين ـ داخل ليكود ـ بأنها علاقات عاصفة . ان عزرا وايزمان يصمد أمام بيجين . ومع ذلك فقد عهد اليه أثناء الانتخابات بادارة الحملة الانتخابية وقد قام بمهمته على خير وجه .

ويحاول عزرا وايزمان ـ وزير دفاع مناحم بيجين ـ تغيير صورته لدى الرأى العام كرجل جذاب من « رجال المظلات » ولكنه يفتقر الى مدى سياسى (على غرار بيجـــار ولكن على الطريقة الاسرائيلية) . انه المثـــال للرجل العسكرى التائه فى الحياة المدنية .

ولقـــد فاجأ ـ منذ فترة من الوقت ـ الطبقة الســـياسية وكاتبى افتتاحيات الصحف فى بلاده مفاجأة ســـارة . أولا بسبب الكتمان الذى يلتزمه : فهو لا يتكلم الا اذا كان لديه ما يقوله . ثانيا : بسبب ضخامة العمـــل الذى قام به فى القوات المسلحة الاسرائيليـــة . ويقول عزرا وايزمان « يجب أن نفكر بالفعل فيما سوف يكون عليه الساحال (الجيش) بعد خمس أو عشر سنوات » .

وهو صاحب عقبـــده باتت مشهورة مؤداها أن الدفاع عن تل ابيب يتقرر عند الخط الراسى المـــار بالقاهرة ودمشق » .

« أما اريل شارون فانه « المقاتل » . وقد كان قائد الفرقة ١٠١ وهى وحدة خاصة من رجال الكوماندوز لمقاومة هجمات « الفدائيين » وهو الذى قام بالثغرة « المشهورة فى سيناء أثناء حرب كيبور . وكان فى سنة ١٩٧٥ المستشار الخاص المؤقت لاسحاق رابين لشئون الارهاب . وما ان صفق وراءه باب حزب ليكود لكى يؤسس حزبه الجديد شلوموزيون حتى وجد نفسه غداة الانتخابات وقد تقلد منصبين وانضم الى الحكومة الائتلافية برئاسة مناحم بيجين . واصبح وزيرا للزراعة فى حكومة بيجين وأحـــد الموافقين الشرسين على اقامة المستوطنات فى الاراضى المحتلة بيد انه لم ينبت بعد أن ملكاته كرجل سياسى ترمى الى مســـتوى مواهبه كرجل استراتيجى عسكرى .

ويتبقى ايجال يادين وموشى ديان ، وهما الوحيدان اللذان يمكنهما فى الحقيقة تولى منصب رئيس الوزراء .

ويتولى ايجال يادين منصب رئيس الوزراء ويقوم بمقتضى الدستور بأعمال بيجين بالنيابة فى حالة غيابه . وهو شرط من شروط العقد الذى ابرم بين ليكود والحركة الديمقراطية من اجل التغيير (داش) . ولقد كان لهذا الشرط دخل كبير فى قراره الخاص بالانضـــمام الى الحـــكومة وقد اسندت اليه عدة مرات بعض المناصب الحكومية ففى سنة ١٩٦٣ بصفة خاصة ، عرض عليه بن جوريون ـ الذى كان قد اختاره « خليفة له » منصب رئيس الوزراء ..

بيـد أنه فضل ــ طوال خمسة وعشرين عاما . العمل فى الصحارى واستجواب الأحجار عن التاريخ المـاضى . وفى يوم من الأيام ، عرض عليه بن جوريون تولى منصب وزير التعليم الوطنى ورد يادين بقوله : « اننى لم انته بعد من التنقيب فى حاتزو » .

فسأله بن جوريون قائلا : « هل تريد أن تقول بأن هذه الأعمال تبدو لك أهم من مسلكه التعليم فى اسرائيل » ؟

وأجاب بقوله : « اننى لا استطيع المقارنة بينهما . ولكننى لا استطيع النجاح الا اذا أفرغت جهدى كله فى شىء واحد . واعتقد اننى باحث وان طموحى الوحيد يتمثل فى هذا المجال » .

اما موشى ديان فان له كفاءة رجل الدولة . وهو يحظى الى ابعد مدى بثقة وصداقة رئيس الوزراء . ويحدد ديان السياسة الخارجية بالتنسيق مع بيجين وهو مشهور بتقبله للآراء الجديدة ولكافة المشروعات . كما أنه معروف بسرعة ملهمة وبأنه لا يحتمل الخوض فى أبحاث مطولة .

ومن الممكن أن يكون الخليفة المفضل لولا الريبة التى يثيرها فى بعض صفوف ليكود (وخاصة داخل حيروت ، وحدة مناحم بيجين) . وذلك نظرا لأنه الرجل القادم من الخارج ، انه لا ينتمى اصلا الى الحزب .

ومع ذلك فان كل هذه التكهنات لا تتعدى ، فى الوقت الراهن ، كونها مجرد « سياسة الخيال » . فليس هناك شىء مؤكد . بل ان الأسوأ ايضا ليس مؤكدا . ومع ذلك فمن الواضح أن الأحزاب التى تتولى السلطة فى اسرائيل تعانى من نقص شديد فى عدد رجال السياسة ومن عدم وجود بديل لهؤلاء الرجال .

فهل سيضطلع رجال امثال يادين أو ديان بمسئولية البيجينية ؟ .

لقد لخص شيمون بيريز ــ الذى يعرف احيانا كيف يصقل عباراته ــ ضخامة تلك المعضلة بقوله : « ان الفرق بين جابوتنسكى وبيجين يتمثل فى أن جابو تنسكى كان له وريث أما بيجين فلا » .

الأمـــل

ظهر فى القدس فى سنة ١٩٦٥ كتاب عن السياسة ــ الخيال وكان عنوان الكتاب يشكل فى حد ذاته فى ذلك الوقت نوعا من الاثارة « فداة تولى بيجين الحكم .. » ويصف فيه المؤلف ــ ويدعى بيرويال ! بطريقة ساذجة وصول القادة العرب الى القدس للتوقيع على اتفاقيات سلام وذلك بعد ٢٤ ساعة من قيام اسرائيل بضم الضفة الغربية دون قيد او شرط ويختتم هذا المؤلف الغامض « كتابه الخيالى » بعبارة لمؤسس الصهيونية تيودور هرتزل تقول « اذا اردتم ، فلن يكون ذلك مجرد حلم » .

وبعد اثنى عشر عاما عاش الملايين الثلاثة من المواطنين الاسرائيليين حلما مشابها نسبيا ففى يوم السبت ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ ، وبعد انتهاء عطلة السبت المقدس وفى الوقت الذى يذكر فيه الناس فى اغلب البيوت اليهودية وصول المسيح ، يهبط الرئيس انور السادات من طائرة بوينج مصرية على ارض اسرائيل . لقد جاء على حد قوله ليقنع قادة وشعب اسرائيل انه يرغب بصدق فى السلام . وكان الحدث مثيرا الى درجة ان الاسرائيليين لم يصدقوا اعينهم . ان « زلزالا » حقيقيا اجتاح البلاد ، قويا بنفس الدرجة التى كانت عليها ــ منذ اربع سنوات قوة الزلزال حرب كيبور .

والتقى السادات وبيجين وراحا يتحدثان وجها لوجه فى لقاء هو لقاء العصر ويقول حمدى فؤاد رئيس قسم الشئون الخارجية فى جريدة الاهرام القاهرية « ان ذلك اعظم من هبوط اول رجل على سطح القمر »

ويشعر ملايين الرجال بأن ازمة الشرق الاوسط . المجمدة منذ ثلاثين عاما بسبب « الرفض العربى » ــ تتعرض لتحول حاسم . لقد ازيل « المحظور » . ولا يقتصر الأمر فقط على ان السادات يتحدث مع القادة الاسرائيليين ولكن الحواجز تنهار ايضا من كل جانب . لقد تعرض المجتمع الاسرائيلى لأعمق تغيير عرفه منذ نشأة الدولة . وتؤمن الغالبية العظمى بحسن نية الرئيس المصرى . ويصرحون باستعدادهم لتقديم التنازلات الضرورية . ومن المؤكد ان رئيس الوزراء مناحم بيجين لم يتنازل عن شيء ــ فى حديثه المخيب للآمال فى الكنيست ــ بالنسبة للمطلبين الأساسيين

للرئيس المصرى : الانسحاب من الاراضى التى احتلتها اسرائيل منذ سنة ١٩٦٧ وضرورة اقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة .

هل يظل بيجين متمسكا بنظرياته المتطرفة ، فى مواجهة مبادرات الرئيس المصرى التى تنطوى على حسن النوايا ؟ ترى هل هو اذن اسير الى هذا الحد للاحزاب التى تؤيده والرجال الذين يساندونه ؟ والم تكن رحلة السادات الى القدس جديرة باجراء اعادة نظر شاملة للمبادىء التى تؤمن بها الدبلوماسية الاسرائيلية ؟

لقد انطلقت الالسنة بالحديث بعد مرور عدة أيام على رحلة السادات للقدس . وكان وزير الخارجية موتى ديان أول من أعلن على النـــاس «ضرورة اجراء تغيير » حينما قال « يجب أن نعد انفسنا لاتخاذ قرارات صعبة . لا يجب أن نضيع البلاد تلك الفرصة التاريخية المعروضة علينا . » ومن المعروف منذ البداية أن هناك تفاهما واتفاقا تاما بين بيجين ووزير خارجيته لدرجة أنه من المؤكد أن تلك الكلمات قد قيلت بناء على موافقة ــ بل واقتراح ــ رئيس الحكومة .

ويأتى بعد ذلك رد فعل أكثر الأوساط احساسا بمستقبل اراضى يهودا والسامرة وتتساءل صحيفة « هاتسوفيه » ــ لسان حال الحزب الدينى الذى يؤيد اقامة المستوطنات عما اذا لم يكن من الضرورى على الحكومة أن تعيد النظر فى بعض المبادىء الاساسية لموقفها » .

ويقول هيوشوابن مائير ــ أكثر ممثلى الجيل الدينى الشاب شعبية ــ « نعم هناك مشكلة فلسطينية وبمعونة الله سوف نجد لها حلا . » ويتحدث وزير التعليم الوطنى زيبيلون هامر فى الاذاعة عن ضرورة حل المشكلة الفلسطينية وضرورة أن تؤخذ فى الاعتبار من الآن فصاعدا المعطيات الجديدة التى أسفرت عنها زيارة الرئيس السادات » .

لقد أصبحت الشعوب ، فى كلا الجانبين ــ ناضجة للسلام وبعبر كثير من الرجال ــ هنا وهناك ، رأيهم حيثما يرون التاريخ يغير مجراه .

ما الذى يدفع الرئيس المصرى الى أن يفجر ــ فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧ ــ هذه الضربة السيكولوجية التى غيرت راسا على عقب معطيات

مشكلة الشرق الأوسط ؟ لماذا القيام بمثل هذا الرهان الذى قد يؤدى الى اثارة جزء كبير من العالم العربى وربما الى تعريضه أيضا لنفس النهاية التى تعرض لها فيما مضى الملك عبد الله جد الملك حسين ؟ من المؤكد أن الوضع الاقتصادى فى مصر التى تعانى من أزمات خطيرة يثير قلق الرئيس المصرى . ولكن لماذا انتظر حتى تولى الحكم فى القدس رجل مشهور بتشدده المتطرف وانتخب اساسا بناء على برنامج انتخابى يرفض تقديم اى تنازلات للدول العربية ؟

لقد فكر السادات بجلاء ، منذ فترة طويلة ، فى مختلف النتائج التى قد تسفر عنها مبادرته . وهناك عنصران شجعان بعد تفكير طويل على تنفيذ مشروع هذه الرحلة . أولا : أعطى بيجين وديان وويزمان — منذ فترة طويلة — صورة مميزة للحكومة تتمثل فى أنها تعرف ما تريد . وهناك فرق شاسع بينها وبين الفريق الحاكم السابق .

ومن جانب آخر ، يشعر السادات بأن هناك أكثر من نقطة مشتركة بينه وبين الرجل الذى يتولى — منذ شهر يونيو سنة ١٩٧٧ — الحكم فى اسرائيل . ان السادات ، مثل بيجين رجل عملى وعاطفى ويعانى الانسان من المرض وبالتالى فليس هناك مجال لاضاعة الوقت اذا ما كانا يرغبان فى اقرار النظام فى بلديهما . ويشعر كل منهما بأن مهمته تحمل معنى شبه صوفى هو قيادة شعبيهما الى السلام والتنمية .

وكان جمال عبد الناصر يقول عن السادات : ان قمة طموحه هو الحصول على سيارة تابعة لوظيفته بسائقها وايصالات البنزين الخاصة بها . وكان بن‌جوريون يتحدث باحتقار عن بيجين بقوله : «ذلك الشخص» .

ومثل السادات فان بيجين رجل وطنى — دينى وهما يؤمنان بقيم مشتركة هى : العائلة والتواضع والشرف والأمانة والنزاهة . ولقد بدا خط سيرهما السياسى نفسه بطريقة متشابهة . فقد ألف بيجين كتابا بعنوان « ثورة اسرائيل » . فى حين كان عنوان الكتاب الذى ألفه السادات « ثورة على ضفاف النيل » .

وفضلا عن ذلك ، يعرف السادات ان هناك نقطة اخرى مشتركة بينه وبين مناحم بيجين وربما تكون أهم النقط جميعها وهى : رفضه للشيوعية بكافة اشكالها .

لقد خلق الرجلان ليلتقيا

وقد قال الرئيس السادات فى « مذكراته » . « شكرا لله الذى منحنى راسا يعمل بدقة مثل الساعة المضبوطة . وفى نهاية الأمر ، فاننى ناجح ».

من الذى يمكن أن ينكر أن رحلة أنور السادات الى القدس فى شهر نوفمبر سنة ١٩٧٧ قد حققت نجاحا ؟ فقد حول لصالحه الرأى العام الاسرائيلى وأثبت للجميع حسن نيته الواضحة والزم حكومة اسرائيل بمحاكاته .

فهل من الممكن أن ينجح بيجين بدوره ؟ هل سيكون لديه القدرة على تعبير مجرى الأمور ، وترجمة الأقوال الى أفعال ، وتحقيق الامل الرائع الذى انبثق فى اسرائيل يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ ؟ وكما كتب وزير الخارجية السابق أبا ايبان فان ذلك ممكنا اذا لم تكن قد اختفت الصفات التى تتميز بها اسرائيل من تفاؤل ونبات وابداع وقدرة ثابتة على استعادة توازنها . ويجب على بيجين أن يزيد من الأمل ، وأن يقهر حائط الحقد ، ويخوض المشكلة الشائكة للشعب الفلسطينى بصفة نهائية . ان انتزاع اسرائيل من الدائره الجهنمية للانتصارات ، واخراجها من عصر ما قبل التاريخ ومن الجيتو الذى تعيش فيه لتجد نفسها فى موقف غنى وجها لوجه مع عالم عربى طرأ عليه التغيير : هذه هى المغامرة الجديدة والرهان الجديد لاسرائيل .

ويكفى أن يرغب منالحم بيجين فى القيام بذلك وأن يتبع العالم العربى حديث الرئيس السادات « المتحضر » حتى يدخل رئيس وزراء اسرائيل — وهو ما زال على قيد الحياة — تاريخ شعبه .

لقد أصبح السلام — منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٧٧ — احتمالا يمكن تحقيقه فى الشرق الأوسط . وقد قال الشاعر حاييم جورى : « أيها الأصدقاء متى رأينا السلام لآخر مرة ؟ ان هذه الأرض متعطشة له .. فكم من الوقت سوف يمضى ، ولم يبلغ عدد التوابيت التى سنحتاجها حتى تنطلق الصرخة : كفى ، كفى ؟ .

Bibliotheca Alexandrina
0271019

جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
القـــاهرة

To: www.al-mostafa.com